أضواء على تراثنا

- رحلة مخطوط
- ربان السفينة على معبر الحضارة
- كنز البردى ، ومجموعة ڤيينا
- مؤتمر المستشرقين الدولى

رحلة مخطوط
بين شرق وغرب

المخطوط الذى أتحدث عنه ، هو نسخة من مصحف أثرى قديم فى متحف طشقند ، يقال إنه المخطوط الأصلى لمصحف عثمان رضى الله عنه

ولعل فيما أرويه من قصة رحلته، ما يوضح الفكرة عن مصير تراثنا بين أيدينا . وبين أيدى الأجانب الغرباء .

شاهدتُ هذا المخطوط فى مأمنه بمتحف تاريخ شعوب أوزباكستان ، فى طشقند عاصمة جمـــهوريتها ، عندما سافرت إلى هناك فى أكتوبر عام ١٩٥٨ ، عضواً فى وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر كُتاب آسيا وإفريقيا .

ولا مجال لحديث فى توثيق هذا المخطوط الأثرى الذى يقال هناك إنه المصحف الذى كان «الخليفة عثمان» رضى الله عنه يقرأ فيه عند مقتله ، فلم يُتح لى أن أفحصه فحص توثيق ، وإن بدا لى أن خطه أقرب إلى نصوص من الخط الكوفى لأواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى للهجرة . كما أن ورقه — وهو من الكاغد — يضع علامة استفهام أمام ما نعرفه من مخطوطات عصر الخلفاء الراشدين ، التى وصلت إلينا على ورق من البردى أو الرق .

لكن مخطوط طشقند ، يحمل مع ذلك مهابة القدم وجلال السمعة ، منذ اشتهر عنه أنه « مصحف عثمان » . والمسلمون فى آسيا السوفييتية ، لا يشكون فى هذا ، وهم يرون على بعض صفحاته آثار بقع يقال إنها من دم عثمان .

وأقرب إلى الاحتمال أن تكون أثراً من عرَق أو لطخاً من مداد .

والذى يعنينا هنا من أمر هذا المخطوط الأثرى ، أن نتتبع مسار رحلته إلى حيث انتهى به المطاف فى متحف طشقند ، وأن نقابل مصيره على مصير مخطوطات لمصاحف أخرى يقال كذلك إنها « مصحف عثمان » وقد بقيت فى حوزتنا نحن العرب المسلمين .

* * *

كما لا مجال للبحث العقيم عن المرحلة المجهولة التى قضاها المخطوط فى وطنه الشرقى الإسلامى ، قبل أن ينتقل إلى سمرقند فى العصر المغولى ، حيث يبدأ المعروف من سير رحلته .

فهناك رواية تقول إن « تيمورلنك » هو الذى نقله إلى سمرقند ، فيما نقل من ذخائر تراث الإسلام . وتعتمد هذه الرواية فيما أرجح ، على ما كتبه المسلم الرومى

-« م . الرمزى »[1] : عن « ختمة شريفة ، أهديت إلى السلطان بركة – من ملوك التتار المسلمين – يذكر أنها بخط الخليفة عثمان ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر من الجلد ، على كرسى من أبنوس وعاج مطعم بالفضة » .

ولا يستبعد المؤلف . أن يكون هذا المصحف هو الذى حمله « تيمورلنك » من مدينة سراى إلى سمرقند .

وهناك رواية أخرى تقول : إن طبيباً من إقليم أوزباكستان عالج أحد السلاطين الترك من مرض عضال . فلما خيره السلطان فى المكافأة ، اختار " مصحف عثمان " ومنه انتقل إلى شيخ مسجد سمرقند .

ورواية ثالثة تقول : إن السلطان التركى شُفى من مرضه ، ببركة ولى الله « حاج أحرار قسطنطينى » ودعواته ، فأهداه هذا المصحف الثمين ، ورحل به حاج أحرار إلى سمرقند ، حيث عُثر عليه فى مدفنه هناك .

ولا تزال هذه المرحلة – من رحلة المخطوط – مجهولة المعالم . فلنتابع بقية المراحل من سمرقند التى يبدأ منها المعروف من خط سيره .

* * *

فى سنة ١٨٦٩ . غزت قوات قيصر روسيا إقليم تركستان ، وكان من نتائج الحملة . أن نقلت ذخائر مخطوطاتها إلى « بطرسبورج » وفيها هذا المصحف الأثرى الذى تولى « الجنرال فون كاوفمان » مهمة نقله ، مما يشهد بأن المسألة كان لها ملحظ سياسى وعسكرى ، يتصل بما نعرف من حركة الاستشراق فى مرحلتها الثانية التى وجهتها لخدمة الاستعمار .

وإن كان قائد الحملة « الجنرال فون كاوفمان » قد برر نقل المصحف بأنه « ليست لديه قيمة عند أهله ، بل هو مجرد أثر يخص أمراء بخارى ، وقد ظل بها مئات السنين دون أن يستطيع أحد قراءته أو الانتفاع به » .

وهو تبرير ظاهره حق ، وإن أخفى القائد وراءه الهدف السياسى لنقل مخطوطات بخارى إلى بطرسبرج .

---

(١) فى كتابه (تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، فى وقائع قازان وبلغار) وهو مطبوع فى قازان سنة ١٩٠٧ م .

وفى بطرسبورج بدأت مرحلة جديدة للمخطوط ؛ حيث كان فى انتظاره مع المخطوطات الأخرى ، لجان من الخبراء عكفت على ترميمه وفحصه ودراسته وصيانته .

وكان المخطوط قد وصل من الشرق الإسلامى فى حالة تعسة : فمن بين صفحاته البالغ عددها ٣٥٣ صفحة ، لم يبق غير خمس عشرة صفحة ، سلمتْ من عبثِ الحشرات وأفاعيل البِلى .

وبقى المصحف فى بطرسبورج مصوناً ، نحو نصف قرن ، إلى أن استجاب « لينين » لرغبة المسلمين فى روسيا ؛ فى نقل المخطوط الثمين المبارك من لينينجراد — بطرسبورج قبل ثورة أكتوبر — إلى طشقند عاصمة أوزباكستان ، بعد أن صارت ولاية روسية . وتم النقل عام ١٩٢٢ حيث أودع فى المتحف التاريخى لشعوب أوزباكستان ، فى علبة من الخشب الثمين داخل صندوق من فولاذ ، وإلى جانبه وعاء من الزجاج مملوء بسائل كيميائى — أظنه الكافور — للوقاية من الحشرات .

ولا يباح للزائرين لمس المخطوط ، كما لا يباح نقله أو إعارته ، وإنما أُعِدَّت منه صورة فوتوغرافية ، طبع منها عدة نسخ وزعت على المراكز الإسلامية بالاتحاد السوفييتى ، بقصد التبرك .

وصورة أخرى منه ، بمتحف طشقند ، فى متناول من يطلبها من الدارسين أو الزائرين .

ولدينا صورة لورقة من مصحف طشقند ، صورها مدير الفنون الجميلة بتونس فى رحلة له إلى أوزباكستان ، ومنها نسخة بالإسكندرية فى مجموعة خطاطنا الكبير « الأستاذ محمد إبراهيم » مدير مدرسة تحسين الخطوط وأستاذ الكتابة العربية بمعهد الفنون الجميلة بالإسكندرية . وقد تفضل فأهدى إلىّ نسخة مصورة لها ، قابلتُها على مصحف دار الكتب بالقاهرة ، وعلى ما لدىّ من صورٍ لبرديات من عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى — نقلاً بالتصوير عن الأصل فى ڤيينا — ورجحت بعد هذه المقابلة ، أن مصحف طشقند يمكن أن يرقى إلى أواخر القرن الأول الهجرى . وخطه أقرب إلى خط مصحف دار الكتب . منه إلى خط المصحف الأثرى الموجود فى " مكتبة مسجد عقبة بن نافع بالقيروان " وهو مخطوط بماء الذهب على رق أزرق نادر . والراجح أنه يرجع إلى القرن الثانى للهجرة .

وإلى مثل ما رجحتُ من تاريخ مصحف طشقند ، اطمأن عدد من علماء المخطوطات فى الاتحاد السوفييتى ، منهم « المستشرق خالدوف مدير معهد الدراسات الشرقية فى لينينجراد » .

وإن كان المسلمون فى آسيا الوسطى السوفييتية ، يأخذون بالقول الشائع عن كونه المصحفَ الذى كان أمير المؤمنين « عثمان رضى الله عنه » يتلو فيه عند مقتله .

* * *

ولكى تتم الصورة . أقابل بين المصير الذى آل إليه هذا المخطوط منذ وصل إلى أيدى الأجانب الغرباء ، وبين المصير المجهول لمخطوط آخر قيل إنه كذلك النسخة الأصلية للمصحف العثمانى ، وأن على صفحاته أثراً من دماء الخليفة المقتول .

وقد كان هذا المخطوط فى حوزتنا ، نحن المسلمين العرب ، إلى ما قبل قرن ونصف قرن من الزمان ، ثم ضاع وتاهت آثاره ، واختلفت فى مصيره الظنون وتعددت الأقوال .

وكنا بحيث نجهل كذلك أنه كان موجوداً قبل مائة وخمسين عاماً فى مسجد قلعة حلب ، لو لم تنشر (مجلة المجمع العلمى بدمشق) مقالاً عنه ، لمناسبة مقال نشرته إحدى المجلات السوفييتية ، فى شهر أبريل ١٩٦٣ ، عن "مصحف عثمان الموجود فى طشقند" .

وفى مقال مجلة المجمع[1] ، أن السيد « محمد بن عمر الكيالى » ذكر فى كتابه (الحلة السنية للرحلة الشامية) — وهو مؤلف فى سنة ١٢٣٣ هـ — أنه زار أطلال قلعة حلب وصلى الظهر فى مسجدها ، ثم تشرف بمشاهدة المصحف العثمانى ذى النور الساطع ، ورأى فى بعض الكلمات آثار الدم ، التى هى براهين وبينات على شهادة عثمان رضى الله عنه .

ثم يستفسر المقال عن مصير ذلك المصحف العثمانى : ألا يزال موجوداً هناك ؟ أم نقل إلى الآستانة قبل الحرب وحُفظ فى متحف الأوقاف الإسلامية ؟ أم — على ما يقال — أخذه إمبراطور ألمانيا يوم زار بلاد الشام ، حتى قررت (معاهدة

---

(١) فى عدد شهر أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، من مجلة المجمع العلمى بدمشق .

سيفر) إعادته إلى المسلمين وتسليمه إلى الملك حسين ملك الحجاز ؟ وهل استلمه الملك حسين أو بقى لدى الألمان ؟ .

أسئلة حائرة لا تجد جواباً يكشف عن مصير ذلك المصحف الذى شوهد فى مسجد قلعة حلب منذ نحو قرن ونصف قرن ، ثم لم نعد نقف له على أثر . . .

على أن الأسئلة الحائرة تلقى ضوءاً على قضية تراثنا ، حين تذكر سلطان تركيا وملك الحجاز وإمبراطور ألمانيا ومعاهدة سيفر .

* * *

هل أضيف أن فى القاهرة مخطوطاً ثالثاً يقال كذلك إنه (مصحف عثمان) مخزوناً فى ركن المخلفات بمسجد الإمام الحسين ، وأن مخطوطاً رابعاً ، لهذا المصحف العثمانى ، قرأنا فى الصحف — عام ١٩٦٢ — خبر عثور وزارة الأوقاف المصرية عليه ، مدفوناً فى خزانة مهملة برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ؟

ولا علم لنا بما تم فى أمر هذين المخطوطين ، كما لا علم لنا بمصير ألوف وألوف من ذخائر تراثنا ، مخزونة فى الزوايا والجوامع ، أو ملقاة مع سقط المتاع فى دور العلماء الراحلين .

* * *

ولست أستبعد أن تكون مخطوطة طشقند ، ومخطوطة المسجد الحسينى ، وتلك التى عُثر عليها برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ، نسخاً قديمة منقولة عن المصحف الإمام مباشرة . وهذا الاحتمال يظل مجرد فرض ، إلى أن يتاح فحص المخطوطات الثلاث ، ومقابلتها مقابلة علمية تجيب عن الأسئلة الآتية :

— هل النسخ الثلاث ، مخطوطة على صنف واحد من الورق أو بديل الورق ؟

— وإلى أى عصر تنتمى بورقها وخطها ومدادها ونسق كتابتها ؟

— وهل هى مكتوبة بقلم ناسخ واحد ، ومداد واحد ، أو بأقلام مختلفة ومداد متعدد ؟ وهل هى متماثلة فى عدد الصفحات ، ونسق الكتابة ، أو تختلف كل منها عن الأخريين ؟

— وهل هناك صلة بينها وبين المصحف الأثرى بمعرض دار الكتب المصرية ،

وخطه يشبه مصحف طشقند فيما أرجح . ومصحف القيروان الموجود بمكتبة مسجد عقبة بن نافع . ويرجع تاريخ خطه إلى القرن الثانى للهجرة ؟

لكن هذه المهمة الصعبة لا تتم بجهد فردى . دون رعاية من هيئة علمية تتيح للدارس أن يطلع على مخطوط طشقند اطلاع فحص وتأمل . ثم يعود بنسخة مصورة منه . وتهيء له كذلك مصورة من مصحف القيروان ، فتوضع المصورتان مع مخطوطات مصحف دار الكتب والمسجد الحسينى ورواق المغاربة ، فى أصولها بالقاهرة .

ولعلنا لا نستثقل هذا العبء ، أو نرى فيه ما يبعدنا عن روح العصر ، إذا ذكرنا أن « السيدة كراتشكوفسكايا » — أرملة عميد المستشرقين الروس — قدمت بحثاً إلى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى موسكو صيف عام ١٩٦٠ ، كان موضوعه : " نوادر المخطوطات القرآنية من القرن السادس عشر " وقد استغرق إعداد البحث عشر سنوات دأباً ، برعاية المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، المشغول ببحوث الفضاء وغزو القمر !

رُبّان السفينة
على معبر الحضارة

قد يخجل المثقف منا . ألا يعرف الملاح البرتغالى الشهير « فاسكو دا جاما » .

ولا يخجله أن يجهل اسم الملاح العربى « أحمد بن ماجد » ربان سفينة فاسكو فى رحلتها التاريخية !

وأقدم هنا كتاباً من تراث أحمد بن ماجد ، نشره المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى . مع بحث للمستعرب الروسى شوموفسكى نال به درجة "الكانديدات" من كلية معهد الاستشراق بموسكو .

وهذا كتاب من تراثنا ، يأتينا من موسكو ، وقد حققه المستشرق « تيودور شوموفسكى » ونشره المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، فى عصر غزو الفضاء .

ومعذرة عن البدء بذكر المحقق والناشر ، قبل أن أذكر اسم الكتاب ومؤلفه ، فقد يبدو لى أننا لا نزال فى حاجة إلى تبرير عنايتنا بقديمنا ، باللفت إلى ما يحمل من بصمة الغرب الجديد ، لكى نقنع قومنا بأن المكتبة الغربية المعاصرة ، لا تزال تجد فى تراثنا ما يستحق كل عناية :

ومؤلف الكتاب ، قد يبدو اسمه « أحمد بن ماجد » غريباً على أسماع هذا الجيل من شباب العرب . وحين أقول إن كتابه ينتمى إلى العصور الوسطى — وقد عاش المؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى — فلعل من شبابنا من يصدون عنه ، ويحسبونه أثراً متحفياً لا يعنى غيرَ علماء التاريخ والآثار .

لكنهم بحيث يلتفتون إلى « أحمد بن ماجد » عندما يقترن اسمه بفاسكو داجاما ، الذى لا يجهلون أنه مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح .

ويلتفتون إلى كتابه ، حين يعلمون أنه خرج فى عصرنا — سنة ١٩٥٧ — من « مطبعة الأكاديمية العلمية فى موسكو » .

• • •

وعنوان الكتاب على الغلاف الخارجى للطبعة الروسية :

(ثلاثة أزهار فى علم البحار) .

على حين يحمل الغلاف الداخلى عنوان :

(ثلاثة راهمانجات مجهولة)

لأحمد بن ماجد

ربان سفينة فاسكو دى جاما

والراهمانجات : جمع راهمانج – أو راهنامج – وهى كلمة أعجمية تعنى كتاب البحر . وينسب إليها فقال : رهمانى ، أى عالم بالبحار[1] .

والنص الذى بأيدينا ، طبعه المجمع العلمى السوفييتى فى مطبعته ، بالتصوير الزنكوغرافى ، لنسخة فريدة بمكتبة معهد الاستشراق فى لينينجراد .

وألحق به الترجمةَ الروسية بقلم شوموفسكى ، وفهارس البلدان ، والمصطلحات الفلكية والبحرية ، مع مصور جغرافى يحمل هذا العنوان :

(صورة بحر الهند ، وبها البنادر التى ندخها أحمد بن ماجد)

وأحتاج هنا أيضاً إلى تفسير لفظ "نَدَخها" فأقول إن الفعل فى معاجمنا اللغوية ، يعنى : صدم ، ويستعمل فى البحار بخاصة ، فيقول راكب البحر : ندخنا ساحلٍ كذا ، وأندخنا المراكبَ الساحل .

* * *

(١) ذكر المستشرق الفرنسى «فيران» أن اللفظ يرتفع أساساً إلى الفارسية الوسطى ، الفهلوية : (راهنك)التى تحولت فى الفارسية الحديثة إلى(راهنامه) وانتقلت إلى العربية بلفظ (راهنامج) أو مقلوبه: راهمانج ، وتعنى الراهمانجات فى عصر ابن ماجد « المرشدات البحرية » .

وقصة المخطوط ومؤلفه ، فى الغرب ، قصة مثيرة[1] : وهى تبدأ عندما اكتشفه « كراتشكوفسكى » فى أوائل هذا القرن ، ضمن مجموعة المخطوطات العربية فى معهد الاستشراق فى بطرسبورج . ولم تكن لدى المستشرق الكبير فكرة واضحة عن « ابن ماجد » صاحب المخطوط ، ثم لما بدأ يحاضر فى الأدب الجغرافى العربى بالمعهد الشرقى فى بطرسبورج — بين عامى ١٩١٠ ، ١٩١٧ — اتصل بالبحوث الخصبة التى نشرها المستشرق الفرنسى « جابرييل فيران » فى تاريخ الجغرافية البحرية فى العصور الوسطى . وكان « فيران » قد أمضى أعواماً طويلة ، فى الثلث الأول من هذا القرن ، فى الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات الفرنسية فى الشرق الآسيوى ، وتخصص فى دراسة تراث التاريخ الجغرافى والملاحى لهذه الأقاليم وقد عثر فى المكتبة القومية بباريس ، سنة ١٩١٢ ، على مخطوطين عربيين فى مجال دراساته ، أحدهما يتضمن تسع عشرة أرجوزة لأحمد بن ماجد فى وصف الملاحة بالبحر الأحمر والخليج العربى الفارسى ، والمحيط الهندى ، وكان الظن عندئذ أنها نسخة فريدة[2] ، وقد بدأ « فيران » فى دراستها من عام ١٩١٤ . وكان من المعروف أن ملاحاً عربياً صاحَبَ فاسكو دا جاما فى رحلته الأولى سنة ١٤٩٨ من مالندى على الساحل الشرقى لإفريقية إلى كلكتا بالهند . وترد المعلومات عن هذا الملاح العربى فى المصادر البرتغالية غامضة . وهى تتحدث عنه باسم « مالموكانا ، أو مالموكاناكا » وبفضل جهود « فيران » استطاع أن يحقق هذا الاسم بمقابلة النصوص البرتغالية على المصادر العربية والتركية . وسوف نشير فيما بعد إلى ما وصل إليه من أن الاسم الحقيقى للملاح العربى هو «شهاب الدين أحمد ابن ماجد بن معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى» وقد توارى هذا الاسم خلف

---

(١) اعتمدت فيما أرويه هنا ، على ما كتبه كراتشكوفسكى فى الفصل العشرين من كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » وأذكر بالشكر والتقدير ، ما زودنى به كذلك ، الأستاذ محمد منير مرسى — وقد كان مدرساً للغة العربية بالاتحاد السوفييتى — من معلومات هامة استكملت بها عناصر القصة .

(٢) ظهرت بعدها فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، نسخة أخرى فى دمشق أشارت إليها مجلة المجمع العلمى بدمشق وجذبت اهتمام فيران . كما ظهرت شائعة عن وجود نسخة بجدة وتم الكشف بعد ذلك عن مصنفات أخرى لابن ماجد فى الموصل ، لا أعلم أنها حققت أو درست .

« ماليوكاناكا » الذى هو لقب بمعنى « المعلم» الخبير بالشئون الملاحية والفلكية .

وبدا لكراتشكوفسكى أن يكتب لفيران بشأن الأراجيز الثلاث التى عثر عليها فى معهد الاستشراق . وهل ثمة نسخ أخرى لها ؟ ورد عليه « فيران » بأنها فيما يعلم نسخة وحيدة فريدة . وكان من رأى كراتشكوفسكى أن يتولى فيران مهمة تحقيق هذا المخطوط لعمق تخصصه فى هذا المجال من التراث العربى . لكن وفاة المستشرق الفرنسى الكبير ، حالت دون ذلك .

وبقيت الأراجيز الثلاث تنتظر ، إلى أن جاء « تيودور شوموفسكى » — من تلاميذ كراتشكوفسكى — فتفرغ لدراسة المخطوط ، فى رسالة علمية نال بها "درجة الكانديدات" من معهد الاستشراق فى موسكو . ثم كان المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، هو الذى تولى طبع المخطوط ، فى مطبعته بموسكو مع رسالة شوموفسكى سنة ١٩٥٧ .

ورسالة شوموفسكى تبدأ بمقدمة كتبها « أولدروج » ، تليها فصول أربعة : الأول منها يقدم نص الأراجيز الثلاث بالتصوير الزنكوغرافى للأصل العربى ، ويقدم الثانى ترجمة روسية له ، وفى الفصل الثالث بيان لموضوع الكتاب وقيمته ، وفى الرابع محاولة للمح الروح العلمية لابن ماجد فى كتابه ، مع تعليقات للدارس الروسى .

وأنقل هنا ما جاء فى رسالة شوموفسكى عن حكاية التقاء فاسكو دا جاما بأحمد بن ماجد [1] :

وهى تبدأ فى مدينة مالندى على الساحل الشرقى لإفريقية . حيث وصل دى جاما من جنوب إفريقية . وهناك أشار عليه أحد سلاطين المنطقة ، بأن يصحب معه « ابن ماجد » ، ربانا خبيراً ماهراً يمكنه أن يقود السفن البرتغالية إلى الهند ، بما له من خبرة طويلة ببحار الجنوب .

وبفضل ابن ماجد ، عرف البرتغاليون الطريق إلى الشرق ، فكان ذلك بداية مأساة حزينة عاشها الشرق : لقد استطاعت البرتغال ، وكانت هى وأسبانيا أعظم دولتين

---

(١) انتفعت هنا أيضاً ، برسالة من السيد الزميل محمد منير مرسى . مع ما جاء فى كتاب كراتشكوفسكى عن أحمد بن ماجد ، ترجمة الزميل الدكتور صلاح الدين هاشم .

بحريتين فى القرن الخامس عشر ، أن تمد نفوذها الاستعمارى إلى الشرق وتستعبد شعوبه ، وعاش « ابن ماجد » ليشهد حملة إبادة البرتغاليين للسلاطين العرب فى إفريقية الشرقية ، وتدعيم الاستعمار البرتغالى فى الهند وإندونيسيا .

وفى الوقت الذى وصل فيه فاسكودا جاما إلى المحيط الهندى ، كانت هناك مدن مزدهرة وبلاد تجارية على سواحل إفريقية الشرقية . ومع أن سفن التجار الهنود كانت تزور موانى البحر الأحمر وشرق إفريقية ، كما وصلت السفن الصينية إلى الجنوب العربى ومقديشيو ومالندى ، إلا أن السيطرة على المحيط الهندى كانت للتجار العرب ، وكان لهم النفوذ التجارى على الساحل كله ، من سفالية فى جنوب الساحل الإفريقى الشرقى ، إلى جزيرة سومطرة .

فللعرب إذن ماض حضارى مزدهر فى البحرية . لكن عندما طوى هذا الماضى صارت الثقافة العربية تكاد لا تخرج عن ثقافة بدو رُحَّل فى الصحراء ، أو هذا ما تصوره أحياناً . فى حين يعرف التاريخ أن البحارة الأوربيين فى القرن الخامس عشر ، كانوا تلاميذ للعرب ، وأن الملاح البرتغالى « أنريكو » الذى يرتبط باسمه أشهر الكشوف الجغرافية البرتغالية ، قد استفاد من تجارب العرب فى رحلاتهم البحرية شرق إفريقية . واستطاع البرتغاليون بفضل هذه التجارب والخبرات أن يبرعوا فى صنع الأدوات البحرية ورسم الخرائط وتشكيل هيئة القيادة البحرية وتصميم أنواع جديدة من السفن ، ولم يقتصر تأثير العرب على البرتغاليين فحسب ، بل امتد إلى الغرب الأوربى حيث نرى المصطلحات البحرية مأخوذة عن العرب .

• • •

أما عن مؤلفات « ابن ماجد » فتشير رسالة شوموفسكى إلى : ١

« حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » : ويرجع تاريخ تأليفه إلى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦٢ م) .

« كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » : وقد طبع فى باريس بتحقيق المستشرق الفرنسى الكبير ، « جابرييل فيران » الذى يصفه بأنه أوضح ما ألف ابن ماجد[١] .

---

(١) انظر حديث كراتشكوفسكى عن هذين الكتابين ، فى ص ٥٧٥ وما بعدها من الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى . « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » .

ونشرُ النص العربى لأراجيز ابن ماجد بالتصوير ، لم يدع مجالاً لهوامش وتعليقات حول النص ، تحقيقاً أو خدمة ، وإنما جاءت كلها فى الفصل الرابع ، باللغة الروسية . وقد حال جهلى بها دون قراءتها ، فاكتفيت بالنص العربى المصور للكتاب ، وهو يحمل من المعالم الهادية إلى التوثيق نوعَ الخط ونمط الأسلوب :

وخط النسخة فيما أرجح ، من خط القرن التاسع الهجرى ، أى من عصر ابن ماجد .

أما نمط الأسلوب ، فمن النظم العلمى الذى شاع التأليف به بعد أن استقرت العلوم ورسخت فى العربية ، فهو على غرار (ألفية ابن مالك) فى النحو ، و (عينية ابن سينا) فى الفلسفة ، و (متن السلم للأخضرى) فى المنطق ، و (متن الشاطبية) فى القراءة وعلم التجديد ، وغيرها من المتون العلمية المنظومة فى أكثر علوم العربية والإسلام .

* * *

وموضوع الكتاب ثلاث أراجيز فى علم البحار وما يتصل به من جغرافيا وفلك . والنظم فى مثل هذا أشق وأعسر من النظم فى العلوم اللغوية والأدبية . ومن عجب أن « ابن ماجد » استطاع أن ينظم مادته العلمية وخبراته الملاحية ، الحافلة بالإشارات الفلكية والمشحونة بأسماء المدن والموانى والجزر والخلجان والشعاب . لكنه اضطر ، لكى يتمكن من تطويع المادة للنظم ، إلى التضحية أحياناً ببعض قواعد النحو ، والإخلال أحياناً ببعض ضوابط الصرف والاشتقاق ، كى تسلم له المادة العلمية . كما احتاج إلى إضافة ألفاظ قضت بها تسوية صنعة النظم وحكم القافية ، وهى ضرورة يندر أن ينجو منها ناظم من أصحاب المتون .

والأرجوزة الأولى اسمها "السفالية" نسبة إلى إقليم سفالة من بر الزنج على ساحل الصومال السفلى — الجنوبى — ومطلع الأرجوزة :

الحمـــد لله الذى أنشا المَلاَ
من عـــدم ، جلّ تعالى وعلا
قد كلّت الألسن عن أوصافه
وكم نرى فى البحر من ألطافه

وعدد أبياتها سبعمائة وستة وأربعون بيتا ، وفيها بيان دقيق لبحر الهند والسواحل الشرقية لإفريقيا وجزيرة القمر (مدغشقر) وأسرار الملاحة فيها ، ووصف لسكانها وأحوالهم الاجتماعية .

ومطلع الأرجوزة الثانية ، المسماة بالمُعَلَّقية ، نسبة إلى « المُعَلَّق » السعدى جد المؤلف ، وكان نادرة زمانه فى علم البحر :

عزمتُ والعزم حميد فى السفرْ
لا سيما من بلدة فيها ضررْ
طالب تحت الريح بالإذعان
فى مركب يطـــير كالعقبان
من أرضِ كاليكوتَ بالعنـــايه
بأول الستين فوق المـــايه

وعدد أبياتها مائتان وواحد وسبعون ، وفيها بيان للملاحة "من بر الهند إلى بر سيلان وسمطرة والسيام وجاوة ، وما كان فى طريقها من الجزر والشعبان ، وكذلك بلاد الغور والصين إلى الحدود الشارفة على البحر المحيط" .

ومطلع الأرجوزة الثالثة :

سرتْ نسمة الفردوس من أرض مكةِ
بريح الصبا فاشتاقت السيرِ حلبىّ

وأبياتها خمسة وخمسون بيتاً ، وترشد ربابنةَ البحار بأدق بيان ، إلى الملاحة فى بحر القلزم من جدة إلى عدن .

* * *

ولاحق لى فى التعرض للمادة العلمية لكتاب ابن ماجد ، ولست من أصحاب الدراية بعلم البحار وما يتصل به من جغرافيا وفلك . وإنما أنظر الكتاب من نواح أخرى ذات بال :

فهو أولا : أثر تاريخى هام ، للملاح العربى الذى قاد سفينة فاسكودا جاما على معبر تحولٍ خطير من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، وما تبع هذا

التحولَ من تطور حاسم فى التاريخ الاقتصادى والحضارى والسياسى ، للشرق والغرب جميعاً .

وهو ثانياً : مصدر أصيل لمعجم ألفاظ عصره وأنماط أساليبه ، كما أنه يسد ثغرة كبيرة فى التاريخ الاجتماعى لشعوب شرقية ، بما يصف لنا من أحوال الناس وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم ومواسمهم وأخلاقهم وأمزجتهم ، فى كل منطقة من الشرق الآسيوى الإفريقى ، مرَّ بها ملاحنا العربى .

وهو ثالثاً : يلفت إلى اهتمام علماء الروس المعاصرين ، بذلك الكتاب الذى ألفه ملاح عربى أمضى فى البحار نحو نصف قرن ، وخبر من الأسرار الملاحية والفلكية ، ما لا شك فى قيمته وجدواه عند المشتغلين ببحوث الفلك والفضاء .

وهو رابعاً : يقدم إلينا مزيداً من ملامح العقلية العلمية للعرب ، وقد طالما ارتاب المرتابون فيها . كما يضيف جديداً إلى ما نعلمه عن شخصية عالم عربى يستطيع أن يتقدم مع زملائه العلماء العرب لتصحيح الفكرة الشائعة عن مناهج الدرس العلمى فى البيئة العربية ، وأن يعطىَ البيئة الحديثة بعض ضوابط منهجية يحسبها كثير منا من بضاعة الغرب الحديث .

لقد نشرت باريس من قبل ، كتاباً آخر فى علم البحرية لابن ماجد ، هو (كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد) .

وفيه يخضع عالمنا المؤلف ، لمنهج علمى دقيق ، ويجعل « التجريب » أساساً للعلم فيقول :

« إن التجريب شىء ما بعده شىء » ص ٤٨ [١] .

ويلتفت إلى العلل التى تشوب القياسَ فى التجربة ، قائلاً لربابنة البحار :

« فلو قاس هذه الأنجمَ المجهولات أحد منكم ، لا يتكلم بها إلا بعد تجربة مكررة ثم مكررة ، صافية من العلل ، فربما جرب أحدكم قياساً وفيه علة وما اطلع عليها ، فإذا رآه تكرر ، ينبغى أن ينطق به ، فوالله ما حققتُ هذه القياسات

---

(١) الرقم هنا وفيما يلى ، يشير إلى موضعه من (كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد) لابن ماجد . ط باريس .

المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها التجربة عشرين سنة . . .

« ولم أترك فى السماء نجماً إلا وقد قست درجته ، وعرفت نقصانه وزيادته » ص ٤٨ ، ٥٢ .

ويُحذر كذلك من استهواء المنطق ، فيما تكون التجربة دليله وبرهانه ، فيقول :

« فإن أكثر الخطأ فى كثرة المنطق ، خصوصاً فى هذه الصنعة . وخطؤها فى المنطق أكثر من خطئها فى العلم » ص ٦٢ .

« وأصل علم البحر : الفن والتجريب ، فإن كان مجرباً موافقاً للعقل فهو صحيح تجزم بصحته لاستكمال الأصلين » . ص ١٨٦ .

ويؤكد أهمية الوراثة العلمية وضرورة التلقى عن شيوخ الصنعة وحضور مجالسهم معتزاً بما توفر له من ذلك بمثل قوله :

« جَدّى عليه الرحمة والغفران ، كان نادرة زمانه فى ذلك البحر . واستفاد منه والدى عليه الرحمة والغفران[1] وقد أخذت علم الرجلين ، مع كثرة التجربة ، وحضرت عشرين حلقة زاخرة بالمعالمة المحققين » ص ٥٦ .

ويؤصل قاعدة منهجية ، فى استيعاب الدارس لآثار من سبقوه فى الميدان ، لكى يبدأ من حيث انتهوا :

« فإن نهايةَ المتقدم بدايةُ المتأخر » .

وقد التزم « ابن ماجد » هذا السلوك العلمى ، فتتبع آثار السابقين وأكبرَ جهودهم ، واختار لنفسه لقب "رابع الثلاثة" اعترافاً منه بفضل أئمة ثلاثة من علماء البحرية العرب تقدموه على الطريق : « عبد العزيز بن أحمد المغربى ، وموسى الفندانى ، وميمون بن خليل » وقال فيهم :

« وقد عظمنا علم سابقينا وتأليفهم ، وأجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا : أنا رابع الثلاثة » .

---

(١) نقل كراتشكوفسكى عن الرحالة المشهور سير ريتشارد بورتون ، أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد ويقرءون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر — ٢/٥٧٣ .

وفى « ابن ماجد » من شيمَ العلماء، تواضعُ من لا يرى نفسه قطبَ العلم ونادرة الزمان وعبقرية الدهر ، وما كان أعظمه حين قال عن أحد مخترعاته :

« ومن اختراعنا فى علم البحر ، تركيبُ المغناطيس على الحُقة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع فى كتاب . . . فإذا كان أحد — غيرنا — يعرف ، فنحن مسبوقون » . ص ٤٦ .

* * *

وأعود على بدء ، فأنظر فى كتاب ابن ماجد من حيث اتصاله بقضية تراثنا بين الشرق والغرب . ففى الوقت الذى شهد هذه الجهودَ الجادة المضنية لعلماء الاستشراق فى الكشف عن كنوز تراثنا وماضى حضارتنا ، ومضت رسائلهم تروح وتجىء ما بين موسكو وباريس سعياً وراء مخطوطٍ لأحمد بن ماجد ، واستكمالاً لوسائل تحقيقه ومعرفة شخصية مؤلفه ،

انقطعت صلة هذه الأجيال منا بهذا الماضى البعيد القريب ، وغابت عنهم خطواتُ أجدادهم على درب التقدم والمعرفة ، وثمار جهودهم فى التاريخ الحضارى للإنسانية ، ودورهم فى قيادته وتوجيهه .

وإذ نقف بمخطوط ابن ماجد ، عندما سماه « كراتشكوفسكى » : « لحظة حاسمة لانتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب » أنقل هنا من حديث ذلك المستشرق الكبير عن الجغرافيا الملاحية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر :

« . . وعندما وضع فرامورو Fra Maure مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ، ذكر أن ملاحاً عربياً (؟) أبحر حوالى عام ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى . وقد أبصر قاسكو دا جاما Vasco Da Gama فى عام ١٤٩٨ سفناً عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة — بيت الإبرة — وخارطات بحرية . وهو يذكر ذلك حرفياً بقوله : « ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية .

«وعلى إحدى هذه السفن وجد قاسكو دا جاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه الشهير البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته

فى منطقة عمان والخليج الفارسى ، بقدر ليس بالقليل ، إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى " عمر" . ويقول فى مذكراته : إن ملاحاً مسلماً وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى ، كان رباناً عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطاه مرشداً للطرق البحرية مبيناً عليه جميع موانى مملكة هرمز ، وهو من وضع ربان آخر يدعى "عمر" كان قد صحبه فى البحر .

« ومن تقرير لألبوكرك ، رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول أبريل ١٥١٢ نعرف أنه قد بعث إلى الملك بصورة منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوة ، ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح ، والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا . وقد بُيِّنتْ الخطوط والطرق التى تسلكها السفن .

« وسنبصر بعد وهلة أن ڤاسكو دا جاما نفسه ، قد وفق فى الإفادة من تجربة العرب العلمية . فالمؤرخ البرتغالى "باروش" يذكر فى كتابه " آسيا البرتغالية " أن ڤاسكو دا جاما التقى فى مالندى بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا (؟) وُجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات . هذا وقد تمكن البحاثة فى بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية "المعلم كانا" الذى دل ڤاسكو دا جاما على الطريق من مالندى إلى قاليقوت بالهند »[1].

* * *

والعبارة هنا ، فى هذا النص عن ربان سفينة دا جاما غامضة ، وقد كان عثور كراتشكوفسكى على مخطوط أحمد بن ماجد ، هو الذى دفعه إلى متابعة البحث عن شخصية المؤلف ، وتتبع ما نشر «جابرييل فيران» عن الجغرافيا التاريخية فى العصور الوسطى ، وقرأ نتيجة بحوثه المقارنة ، بين المصادر البرتغالية والعربية والتركية عن قائد السفينة المشهورة . ويأتى اسم الربان فى المصادر البرتغالية : "Malemo Cana" وقد يذكر باسم Canaqua . وقد أثبت فيران أنه من ألقاب الاحترام لا من أسماء الأعلام وأن لفظ Malemo ليس سوى اللفظ العربى " معلم" باللغة السواحيلية السائدة

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى : ج ٢ ص ٥٦٤ وما بعدها من الترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

بإفريقية . وقد دخل فى الاصطلاح الملاحى وأطلق على الشخص الذى نال خبرة عملية ونظرية فى المسائل البحرية ، وجمعه : معالمة .

أما لفظ "كاناكا" فهو يقابل اللفظ السنسكريتى Ganica ويعنى الحاسب والمنجم.

ومن هنا ثبت أن لفظ "المعلم كانا" فى النص البرتغالى عن دليل « دا جاما » يعنى « الخبير بالشئون الملاحية والفلكية » وليس اسم علم لشخص ... ووراء هذا اللقب ، أغفلت المصادر البرتغالية اسم الربان العربى ، حتى أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص فى مخطوط لمؤلف عربى هو « قطب الدين النهروالى » يرجع تأليفه إلى نحو خمسين عاماً بعد ذلك الحادث الخطير ، أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق !

ولست أدرى ما إذا كان أحد من مؤرخينا قد اطلع على مخطوط النهروالى قبل أن يلتقط منه « سلفستر دى ساسى » سنة ١٧٩٤ ، مارواه عن ربان سفينة فاسكو دا جاما ؟

أما هناك فى الغرب ، فظهرت بعد قرن تقريباً من سلفستر دى ساسى ، ترجمة برتغالية لرواية النهروالى ، قدمها دافيد لوبيز David Lopes سنة ١٨٩٢ . ثم كان «فيران» هو الذى عكف على قراءة النص العربى وخدمته وترجمته، وزوده بتعليقات هامة فى هذه القضية ، وعليها اعتمد « كراتشكوفسكى » فى دراسته لها ، واستكماله لمادة بحوثه الخصبة فى التاريخ الجغرافى لعصر ابن ماجد .

وقطب الدين النهروالى (٩١٧ : ٩٩٠ هـ — ١٥١١ : ١٥٨٢ م) أدرك شيوخ ذلك العصر ، ولقى الذين شهدوا الرحلة التاريخية التى قادها ابن ماجد ربانا ودليلاً ، وما أعقب ذلك من تحول خطير عدّه قومنا كارثة قضت على ما كان للمسلمين من سيطرة على بحار المنطقة ، وفتحت ثغرة للتسلل الاستعمارى ما يزال الشرق حتى اليوم يئن من صدمتها .

والنص الذى أحدث كلّ هذا الدوى فى الميدان الغربى ، ورد فى كتاب النهروالى عن فتح العثمانيين لليمن : (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) وفيه يقول النهروالى :

« وقع فى أول القرن العاشر — ١٤٩٥ م — من الحوادث الفوادح النوادر ،

دخول البرتغال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند . وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبته — مضيق جبال طارق — ويلجون فى (بحر) الظلمات ويمرون خلف جبال القُمْر — جمع أقمر أى أبيض — وهى أصل بحر النيل . ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق ، أحدُ جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات ، فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب — سفينة صغيرة — إلى (بحر) الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أمراء البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبَه كبيرُ الفرنج وكان يقال له[1] الأملندى ، وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا « كوّة »[2] اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن ، (و) من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا . ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كلّ سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه ، سلطان كجرات يومئذ (٩١٧ : ٩٣٢ هـ ١٥١١ . ١٥٢٥ م) إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى يستعين به على الإفرنج » .

* * *

وبفضل هذا النص ، من مخطوط قديم لقطب الدين النهروالى ، اتجه علماء الغرب — كما يصرح كراتشكوفسكى — إلى أن يتذكروا أن مصنفات شخص باسم

---

(١) إذا كان الضمير هنا لكبير الفرنج ، وهو أقرب مذكور ، فالأملندى فيما يقول فيران : هو الشكل العربى للفظ البرتغالى الميرانتى Almurante أى الأميرال — يعنى فاسكودا جاما . ص ٥٧١ .

أما إذا كان الضمير لأحمد بن ماجد ، فيبدو محتملا أن يكون الأملندى نسبة غير قياسية إلى « مالندى » وفيها كان يعيش ابن ماجد ، ومنها كانت رحلته ربانا لسفينة فاسكودا جاما إلى الهند .

(٢) هى مدينة جوا البرتغالية على ساحل الدكن ، Nova Goa .

« أحمد بن ماجد » كانت المصدر الأساسى لمصنَّفٍ فى الجغرافيا الملاحية وضعه أمير البحر التركى « على رَيِّس » الذى قذف به مصيره إلى الخليج الفارسى والهند بعد خمسين عاماً بالتقريب من الحوادث التى نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركى يذكر فى مقدمة كتابه عدداً من مصنفات أحمد بن ماجد بعناوينها . وبفضل هذا وجَدَ اسمُ ابنِ ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوربية منذ بداية القرن التاسع عشر.

غيرَ أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ ، حيث عثر على مخطوطتين فى المكتبة الأهلية بباريس . ومن الغريب حقًّا أن ذلك الكشف الهام كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ ، مع أن المخطوطتين قد ورد ذكرهما فى فهرس المكتبة الذى صنفه « دى سلان De Slane » عام ١٨٩٥. وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفريدتين إلى الكشف شيئاً فشيئاً عن مخطوطات أخرى ومواد مماثلة[١] .

وأحصى كراتشكوفسكى ما عرف إلى زمنه من "مصنفات أحمد بن ماجد" ، فذكر أنها تبلغ نحو أربعين مصنفاً .

* * *

أما هنا ، فلست أذكر أنى لمحت أثراً لابن ماجد فيما قرأت للدارسين والمؤرخين العرب ، باستثناء عدد قليل منهم ، لعل أولهم ، فيما أذكر ، شيخ العروبة أحمد زكى الذىأشار فى سنة ١٩١٧ إلى أن «أحمد بن ماجد» هو المرشد الذى تكلمت عنه المصادر البرتغالية .

وفى سنة ١٩٢٢ أتيح لطالب مصرى كان يدرس القانون فى فرنسا — وهو الأستاذ الدكتور محمد أمين ملش المحامى — أن يطلع على ما فى المكتبة القومية بباريس من تراث ابن ماجد الذى كان يشغل دوائر الاستشراق هناك فى ذلك الحين . ثم لما عاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ لفت دارَ الكتب المصرية إلى ضرورة تصوير هذه الذخائر . كما حرص من ذلك الحين على أن يتعرف إلى تراثنا التاريخى فى قوانين الملاحة البحرية . وقد ألقى عام ١٩٦٠ محاضرة بالأزهر عن "الأساطيل الإسلامية والأصول العربية للتشريع البحرى الحديث" وفيها إشارة

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، الترجمة العربية .

إلى « ابن ماجد » فى سياق العرض التاريخى الرائع لأمجادنا البحرية ، مع دراسة مقارنة للتشريع البحرى الحديث وتقاليدنا الملاحية ، تكشف عن أثر باق للعرب فى هذا الميدان ، تشهد به المصطلحات العلمية العربية فى نصوص التشريع البحرى الحديث ، وقد بلغ ما أحصاه الدكتور ملش من هذه المصطلحات ، فى اللغة الفرنسية وحدها ، ثلاثمائة مصطلح لا تزال تحتفظ بأصلها العربى على لسان الفرنجة . (١)

وثالث من علمائنا ، هو « الأستاذ الدكتور حسين فوزى » التقى فى رحلاته عبر تاريخنا بأحمد بن ماجد . عن طريق « قطب الدين النهروالى » الذى سجل المشهد المثير لانتقال شعلة حضارية من الشرق إلى الغرب ، وكان « ابن ماجد » بطل ذلك المشهد على ما نقلنا من حديث قطب الدين ، فى كتابه (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) .

وقد أطال سندبادنا العصرى الوقوفَ أمام رواية النهروالى متأملاً ، وتتبع آثار رحلة ابن ماجد على السفينة البرتغالية ، وهى الرحلة التى دخلت التاريخ خطوة حاسمة على معبر الحضارة ، وكانت فى الوقت نفسه إيذاناً بمغيب الشمس عن أفقنا ، ليبدأ ليل الغزو الاستعمارى الطويل .

وكان هذا هو موضوع محاضرة للأستاذ الدكتور ، ألقاها فى الكويت عام ١٩٥٦ وانطلق فيها يرتاد مجاهل تاريخ الملاحة العربية فى القرون الوسطى ، ويتلو هذه الصفحة المطوية عنا ، من تاريخنا الحضارى .

وهذا — فيما أعلم — هو كل رصيدنا من العناية بابن ماجد وتراثه !

* * *

وأختم هذا الحديث الذى طال عن ربان السفينة على معبر التحول التاريخى ، بوقفة عند حكاية سُكرِ ابنِ ماجد ، التى جاءت فى حديث قطب الدين النهروالى عن ملاحنا العربى الكبير .

وقد ذهب كراتشكوفسكى إلى أنه « يجب أن نطرح من هذا المتن ، الحكاية

---

(١) من رسالة خاصة تفضل السيد الدكتور محمد أمين ملش فبعثها إلى ، من الإسكندرية ، إضافة إلى مقال نشرته فى « الأهرام » عن ابن ماجد وكتابه .

الخاصة بسُكر الربان المسلم ، إذ من الواضح أن المؤلف — قطب الدين النهروالى — إنما أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة » .

وكذلك ارتاب فيها الأستاذ الدكتور حسين فوزى فى محاضرته ومرّ بالمسألة غيرَ مكترثٍ بها « لأنها لا تهمنا فى قليل أو كثير » .

على حين أراها بالغة الأهمية فى تفسير موقف الملاح العربى الذى قاد «فاسكو داجاما» إلى بحر الهند ، وأسلمه مفتاح الطريق إلى كنوز الشرق ، مما جعل بعض المؤرخين العرب يُحمّلونه وزرَ النكبات التى حاقت بالشرق الإسلامى من ذلك الحين ، ويعدونه مسئولاً عن مأساة الغزو البرتغالى الذى اجتاح القارة الآسيوية « وألح على المسلمين أسراً ونهباً ، وأخذ كلّ سفينة غصباً » كما قال النهروالى بنص عبارته .

والمصادر البرتغالية ، تشير إلى الملاح المسلم ، فتذكر — فيما نقل كراتشكوفسكى عن مذكرات ألبوكرك — أن هذا الملاح وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى وكان ربّاناً عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطى فاسكو دا جاما مرشداً للطرق البحرية هناك . .

وبمقابلة هذه الرواية البرتغالية ، على الرواية العربية للنهروالى ، نجد أنهما تلتقيان فى القول بأن الملاح المسلم كان مسلوب الإرادة وهو يرشد فاسكو دا جاما ، إما بسُكرٍ أو بأسْرٍ . وإذا قدرنا أن النهروالى أدرك عصر ابن ماجد ، لم نجد ما يدعو إلى رفض روايته عن سكر هذا الملاح المسلم ، وليس لدينا أى دليل على اتهامها ، سوى الظن بأنه إنما « يبرر موافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة » .

وإذا كنا بعقلية عصرنا الحديث ، ننظر إلى الرحلة من حيث أثرها الحاسم فى التقدم الحضارى . ولا نستطيع أن نلقى على كاهل فرد واحد ، تبعة حركة تحول حتمى ، قضت بها ظروف وعوامل مادية ومعنوية ، فإن لمؤرخينا القدامى عُذرَهم حين نظروا إلى الرحلة من زاويتها القومية . ورصدوا ما حاق بالشرق الإسلامى من ويلاتها . شأنهم فى ذلك شأن الذين عدوا حفر قناة السويس مسئولاً عن النكبات والمحن التى حاقت بمصر منذ أعطى « سعيد » صديقه الأجنبى « فرديناند

دى ليسبس » رخصةَ حفرِ المعبر الذى ظل زماناً موطئاً لغول الاستعمار وقراصنة الرأسماليين من يهود الغرب .

وكما يحمل « سعيد » وزر هذه النكبات لدى من ينظرون إلى القناة هذه النظرة ، حمَّل مؤرخونا القدامى « أحمد بن ماجد » وزر المأساة التى كان الشرق الإسلامى مسرحاً لها منذ عرف البرتغال طريقهم إلى ساحل الهند . فإذا قال مؤلف (البرق اليمانى) إن ابن ماجد فعل ما فعل وهو مسلوب الإرادة من أثر السكر ، وجب أن تستوقفنا هذه العبارة بدلالتها على محنة الملاح المسلم الذى قاد الغزاة إلى وطنه ، وبكشفها عن الوسيلة الخبيثة التى لجأ إليها « كبير الفرنج فاسكو دا جاما » ليحل عقدة لسانه ، ويستدرجه إلى الكشف عما خبر من أسرار البحر وفنون الملاحة ، ويتخذ منه دليلاً مرشداً لرحلة الغزو الاستعمارى التى هى فى حساب التاريخ العام ، رحلة انتقال للحضارة من الشرق إلى الغرب قضت به سنن حتمية ، وأعانت عليه ظروف الزمان والمكان .

• • •

والحديث عن مخطوط ابن ماجد فى علم البحار ، وفضل كراتشكوفسكى فى اكتشافه وتتبع آثاره ، يغرى بحديث آخر عن سِفر قيم لهذا المستشرق الكبير نشرته كذلك أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى وأعنى به (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) وتستطيعون أن ترجعوا إلى تعليقى عليه ، فى المجلد الثانى من الترجمة العربية ، للزميل السودانى ، الدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

كنز البردى
ومجموعة (البرتينا) فى ڤينا

العرض الموجز لموضوع تراثنا بين شرق وغرب ، تجلوه هذه القصة المثيرة للسباق بين دول الغرب على كنز البردى ، ونحن بمعزل عن هذا السباق ، كأنه لا يعنينا من قريب أو بعيد !

* فى عطلة الصيف من عام ١٩٦٤ ، استأذنتُ جامعة عين شمس فى السفر إلى ڤيينا فى مهمة علمية لفحص أوراق البردى فى مكتبةألبرتينا الملحقة بمكتبة ڤيينا القومية ، وحدد قرار مجلس الجامعة لهذه المهمة مدة ثلاثة أشهر (يونيو — أغسطس) من ذلك الصيف .

* * *

ومن اليوم الأول أدركت أن الوقت المحدد للمهمة لا يكفى لاستيعاب ما هناك من سجلات البردى ووثائقها ، فضلاً عن فحص قدر كاف من البرديات العربية التى يبلغ عددها نحو عشرة آلاف بردية ، ضمن مجموعة ألبرتينا الكبرى التى يقرب عددها من مائة ألف بردية مصرية .

كما أدركت أن أى جهد فردى مهما يكن سخيًّا ومخلصاً ، لا يمكن أن ينهض بهذا العبء .

والواقع أننى ما كنت لأستطيع أن أفعل شيئاً ذا بال ، لولا وجود أستاذى « أمين الخولى » معى موجهاً ، ومساعدة ابنتى « أديبة أمين الخولى » التى تفرغت لترجمة النصوص والرسائل عن الألمانية ، وكانت مطالعتى السريعة لهذه النصوص ، قد كشفت لى عن ضرورة أخذ تراجم لها ، كاملة ودقيقة .

وكنت فى رحلة لى سابقة إلى ڤيينا ، عام ١٩٥٩ ، قد زرت مكتبة ألبرتينا زيارة سريعة للاطلاع على محفوظاتها من ذخائر البردى والنظر فى إمكان الانتفاع بها فى توثيق مخطوطات تراثنا ، بمعرفة نماذج من الخط العربى المبكر ، ونسق الكتابة ، وأنواع الورق والمداد . وكان هذا على وجه الخصوص ، هو ما أسعى إليه فى رحلتى الأولى إلى ألبرتينا ، غير أنى ما لبثت أن أدركت أن المسألة أخطر وأهم مما قدرت :

ألوف لا تُحصى من البردى ، تسجل حياة أجدادنا ، وتضىء للإنسانية

---

* من تقرير عن مجموعة بردى ڤيينا ، قدمته إلى جامعة عين شمس ، وإلى دار الكتب بمصر ، وطبعته موسكو باللغة العربية سنة ١٩٦٦ بعناية الزميل المستشرق « شربانوف » .

تاريخ مرحلة طويلة وهامة من ماضى حضارتها ، وتعطى التاريخ وثائق مادية كاشفة لما فيه من غموض ، ومصححة لكثير مما شابه من أخطاء ، ومكملة لقصور المرويات النقلية التى تتسع للزيف والعبث والوضع ، وتتعرض للتجريح والاتهام .

ومعها ذخائر نادرة من مخطوطات على الرق والخشب والخزف والنسيج ، ودائع تركها أسلافنا ، وطوتها أرض الوادى وأطلال خرائبه لمدى قرون ودهور ، ثم لما بدأ الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ، ازدراها قومنا فلم يجدوا فيها سوى نفايات رخيصة أو كفريات محرمة ، وتركوها للأجانب الذين تسابقوا على الكنز .

(١)

من سجلات البردى

وكانت المرحلة الأولى من العمل ، دراسة ما فى مخطوطات ألبرتينا من سجلات وبحوث لعلماء البردى ، وقد استطعت أن أستوعب منها ، أهم ما يحتاج إليه عملى وهذا بيان لما طالعته منها باستيعاب :

١ — دليل « كراباتشك » للبردى الذى عُثر عليه فى الفيوم .

Karabacek, J. : Der Papyrusfund von el Eayùm.. Wien, 1882

وفيه لوحات ١١ نكوغراف ، لأهم الوثائق التى فُحصت من مجموعة الفيوم الأولى .

كراباتشك : « دليل عن مجموعة بردى الأرشيدوق راينر »

Fuhrer durch de Josef Karabacek : Papyrus Erzherzog Rainer. Wine, 1864.

وفيه عرض لأهم البرديات التى فحصها كراباتشك ، منسقة فى فصول حسب لغاتها . والفصل الخاص بالبردى العربية ، يقدم ٩٥٠ برديةعربية مصرية ، من الفتح العربى لمصر ، إلى عصر المماليك . وهذه البرديات مرتبة ترتيباً تاريخياً ، مع تعليق من « كراباتشك » على نصها وما حوله من ظروف تاريخية .

ويقع هذا القسم العربى من ص ١٢٣ . وأرقام بردياته فى فهرست ألبرتينا من ٥٥٠ : ١٤٠٠ .

٣ — وثائق رسمية من البردى العربية ، نشرها الدكتور جروهمان ج ١ طبع ڤيينا ١٩٢٣ .

Grohmann, A.; Protokolle u. Herausgaben. Wien, 1923

مع فهرس بأرقام هذه الوثائق — وعددها ٣٠٦ — فى المجموعة العامة .

٤ — جروهمان : « مدخل عام فى البردى العربى » — ڤيينا ١٩٢٤ .

Grohmann, A. : Allgemeine Einfuhrung in die Arabischen Papyri.

وفيه لمحة تاريخية . لقصة العثور على البردى وأماكن العثور عليه . ومراحل انتقاله إلى أوربا ، ومواضع وجوده فى مختلف متاحفها وجامعاتها ، مع بيان مفصل للعمل الفنى والعلمى فى فك اللفائف وفحصها وتصنيفها ، وإيضاح للغاتها وخطها ومدادها وهندستها ، وتقييم لمادة الوثائق القديمة .

٥ — كتاب جروهمان عن علم البردى . ط براج ١٩٥٥ .

Grohmann, A. : Einfuhrung und Chrestomathie zur Arabischen Papyruskunde. Praha. 1955.

٦ — مجموعة الرسائل المتبادلة بين « تيودور جراف ، ويوسف كراباتشك والأرشيدوق راينر » . نشرها الدكتور هربرت هونجر فى ڤيينا ١٩٦٢ .

Hunger. H. : Aus der Vorgeschichte der Papyrussammlung der Osterreichischen Nationalbibliothek - Briefe Theodor Grafs. J.V. Karabacek. Erzherzog Rainer. Wien, 1962.

وفيه نصوص للرسائل الهامة التى تروى قصة اقتناء النمسا لأكبر وأغنى مجموعة من البردى فى العالم كله . والثمن الذى أخذه التاجر جراف من الأرشيدوق راينر لهذه المجموعة .

والكتب الأربعة الأولى لا توجد فى المكتبات ، وإنما تستعار للقراءة من محفوظات ألبرتينا ، أما الكتب الثلاثة الأخيرة فوجدتُ نسخاً منها فى مكتبات ڤيينا ودار الكتب القومية بها . ومن هذه السجلات والبحوث لعلماء البردى عرفت على وجه الدقة والتفصيل ، قصة العثور على كنوز البردى فى أرض مصر ، والدول التى اشتركت فى السباق عليه ، والقدر الذى تملكه منه متاحفُ الغرب وجامعاته ومعاهده ومكتباته ، إلى جانب ما يملكه هواة الآثار وعلماء المعصريات والاستشراق .

* * *

وتبدأ القصة من عام ١٨٢٤ حيث عثر بعض الفلاحين فى منطقة سقارة على إبريق صغير من الفخار فيه برديتان عربيتان ، ظفر بهما هاوى الأثريات المصرية « برناردو دروڤيتى Bernardo Drovetti » قنصل فرنسا بمصر ، وبادر فقدمهما إلى البارون سلڤستر دى ساسى Silvester de Sacy الذى اهتم بدراستهما كما درس معهما برديات عربية أهداها القنصل الإنجليزى Henry Satt إلى الملك لويس الثامن عشر .

ومضت عشرات من السنين ، دون جديد .

ثم عثر الفلاحون فجأة على أكوام من البردى فى الخرائب المهجورة لأطلال مدينة "أرسنوحى" القديمة ، ومكانها الحالى : كوم فارس ، فى صيف عام ١٨٧٧ ، وعُرضتْ هذه المجموعة من البردى للبيع فاشتراها « ج . تراڤرس .G. Travers » قنصل الرايخ الألمانى فى القاهرة وأرسلها من فوره إلى المتحف المصرى ببرلين .

فى شتاء العام نفسه ، عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من البردى فى خرائب " كوم الحرانية" اشترى « تراڤرس » أكثرها وذهب قدر منها إلى متحف اللوڤر بباريس . وقدر آخر اشتراه «بورجسن ، وروجرز : القنصل الإنجليزى بالقاهرة » وانتقل بفضل جهود « شترن : Stern » إلى ملكية المتحف المصرى ببرلين ، فى عام ١٨٨١ م .

فى هذه الفترة كان المستشرق النمساوى «Karabacek, J.» قد التفت إلى أهمية البردى عن طريق هوايته لفن النسيج الأثرى ودراسة السجاجيد الشرقية ، فحدث أن أرسل إليه من القاهرة ، مواطنه « تيودور جراف Theodor Graf » تاجر السجاجيد المشهور ، مجموعة من قطع النسيج الأثرية ، معها لفائف من البردى لم يكد « كراباتشك » يراها حتى قدر ما لها من قيمة أثرية لا تقدر بمال. وبادر فأرسل إلى « جراف » بالقاهرة يلفته إلى أهمية البردى ويطلب منه أن يسعى لجمعه وإرساله إلى ڤيينا . وبدأ دخول النمسا فى السباق على كنز البردى من عام ١٨٨١ وكان « تيودور جراف » هو الذى قام بأكبر جولة فى هذا السباق ، بمهارته وخبرته ومعرفته بمصر ، بعد إقامته بها سنوات عديدة مستشاراً لبيت تجارى كبير .

* * *

وبعدها اتسع نطاق البحث عن البردى ، فشمل أكثر مناطق الصعيد . وشاركت الدلتا مع ذلك فى إضافة قدر من الذخائر ، حيث عثر فى الفسطاط على برديات عربية من عصر الفتح ، وأخرى من العصر الفاطمى ، كما عثر على قليل من لفائف البردى العربية قرب طنطا وفى كوم القلزم قرب السويس .

ولم يُترك الأمر طويلا للصدفة ، بل شاركت بعثات أثرية وعلماء حفريات من أوربا فى هذا النشاط ، إلى جانب ما كان الفلاحون البدو يعثرون عليه بين الخرائب والأطلال . ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالبحث عن كنز البردى شفاينفورت Schweinfurth. (١٨٨٦) وجوجنت Jougnet (١٩٠٠) .

وعثرت بعثة الحفريات الألمانية بإشراف روبنسون (١٩٠٢ : ١٩٠٥) على وثائق هامة ، ثم استأنفت نشاطها من مارس ١٩٠٨ بإشراف فيريك وتسوكر Viereck & Zucker فى منطقة الأشمونين. وفى سنة ١٩١٠ عثرت البعثة الألمانية برياسة شوبرت وتسوكر ، فى عرب الكوم ، على برديات هامة ، وصكوك قبطية من القرنين السادس والسابع للميلاد .

وشارك الإيطاليون فى الحفريات من عام ١٩٠٣ . واكتشف ڤيلكن وشوفر Willcken,V. & Schofer, H. أكواماً من البردى العربية فى أبو صير الملق عام ١٩٠٤. وقام جرنفيل وهانت B.P. Grenfell & Hunt A. بعدة حفريات ، فى البهنسا من سنة ١٨٩٦ ، وفى الفشن عام ١٩٠٢ ، كشفت عن برديات عربية هامة. وعثر الإنجليز على كمية ضخمة من لفائف البردى الإغريقية . وشغلت البعثة الفرنسية البولندية بالحفر فقدمت نتائج أثرية هامة ، وبدأ المعهد الفرنسى للآثار حفرياته فى إدفو عام ١٩١٤ ، ثم تعطلت بسبب الحرب العالمية إلى أن استؤنفت فى ديسمبر ١٩٢١ بإشراف سان بول جيرار Saint Paul Girard. فعثرت على برديات عربية هامة وعلى عقدين تجاريين على الرق ولوحات من الطين والخشب عليها كتابات عربية وقبطية . وظلت البعثات الأثرية تمارس نشاطها فى البحث عن كنز البردى نحو نصف قرن . ففى عام ١٩٣٧ عثرت بعثة جامعة وارسو بالاشتراك مع المعهد الفرنسى للآثار على سبع برديات عربية فى أطلال إدفو ، ووثائق أخرى أثرية مدونة على الرق . كما عثرت البعثة الإيطالية للآثار Missione Archologica d'Egitto

برياسة الأستاذ فوليانو Vogliano فى العام نفسه ، على مجموعات غنية من البردى الإغريقية والقبطية ، وبعض صكوك عربية للضرائب من القرن الثالث الهجرى .

* * *

ولا تشير السجلات التى اطلعتُ عليها إلى مشاركة لمصر فى هذا السباق الدولى على كنزها ، فيما عدا ما ذكره « جروهمان » فى كتابه عن البردى العربية عن "تاجر عربى اسمه الشيخ حسن ، قام بحفريات خفية فى منطقة الفشن بقصد السرقة" ثم لم يذكر جروهمان ماذا عثر عليه هذا السارق ، من آثار أجداده وكنوز أرضه !

وعلى مدى ذلك الزمن الطويل لنشاط البعثات الأثرية ، كان البدو والفلاحون يعثرون من حين إلى آخر على ذخائر من البردى أثناء بحثهم فى الخرائب والأطلال والمقابر المهجورة عن بعض ما ينتفعون به للوقود أو السماد ! ومن أهم ما عثروا عليه ، كميات كبيرة من البردى العربية فى الأشمونين حوالى عام ١٨٨٥ ضُمّ جزء هام منها إلى مجموعة النمسا ، والباقى تقاسمته مانشستر وهايدلبرج وهامبورج والمكتبة الخديوية بالقاهرة . وهذه المجموعات تكاد توازى مجموعات الفيوم من حيث العدد والأهمية التاريخية . وفى عام ١٩٠١ عثر فلاحو "كوم اشقاو" — وتقع على بعد ٧ ك م من جنوب غربى طما — على كمية كبيرة من البردى فى مقبرة إسلامية مهجورة خلف كنيسة القرية ، ولم يكونوا يقدرون قيمة هذه اللفائف فأحرقوا بعضها وقوداً وتركوا الباقى فى مكانه . لكن عمدة القرية كان قد سمع تجار الآثار يسألون عن البردى ، أى بردى فأسرع إلى المقبرة وحمل ما استطاع منه ، كما حمل الخفير الذى كان يصحبه اللفائف . وأثار هذا التصرف ريبة فى نفوس أهل القرية فطالبوا بنصيبهم مما عثروا عليه ، ولم يهدأوا حتى ظفر كل منهم ببعض اللفائف . وتسامع تجار الآثار بالحادث فأقبلوا من طما والاقصر وأخميم يساومون أهل القرية على شراء ما لديهم من البردى . ووصل الخبر إلى مفتش آثار "أبيدوس" فلجأ إلى مأمور طما الذى ذهب إلى كوم اشقاو مع قوة من جنود الشرطة ، أرهبت الفلاحين فسارعوا إلى إخفاء ما لديهم أو إحراقه ، خوفاً من العقاب ! ولم يسفر التفتيش عن نتيجة ، وأقامت الشرطة حراسة على المنطقة . وبدأ الحفر فيها بإشراف العالم الأثرى كويبل J.E. Quibell. واستمر ثمانية عشر يوماً ، فكان كل ما عثر عليه ثلاث برديات وبعض لفائف الرق

القبطى والإغريقى ، وبعد مضى بضعة أشهر ظهرت "مجموعة كوم اشقاو" التى أخفاها أهل القرية . لدى تاجر بالقاهرة، واستطاع الأستاذ موريتس .Moritz أن يشترى قدراً كبيراً منها . باع بعضها لدار الكتب الخديوية — وكان مديراً لها — واحتفظ بأكثرها لمجموعته الخاصة . كما وصلت لفائف من بردى كوم إشقاو إلى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلاً عما اشتراه بعض العلماء أمثال مونستر وتاشنر ,Munster & Taschner من ذخائر المجموعة .

(٢)

مصير البردى

على هذا النحو كان السباق الدولى على ذخائر تراثنا من البردى . وقد استغرق نحو قرن من الزمان على مرحلتين :

الأولى : من عام ١٨٢٤ حين عثر بعض فلاحى سقارة على إبريق من الفخار فيه لفافتان من البردى العربية — أهداهما القنصل دروفيتى إلى ملك فرنسا — إلى عام ١٨٧٧ حين عثر سكان الفيوم على مجموعة كبيرة من البردى الرائعة . وهى التى اشتراها القنصل الألمانى « تراڤرس » لحساب المتحف المصرى ببرلين .

وفى هذه المرحلة الأولى ، كان أمر العثور على البردى متروكاً للمصادفات : فتحت ضغط الفقر والحاجة ، كان الفلاحون ينقبون فيما حول قراهم من خرائب وأطلال ، التماساً لبعض السماد والوقود ، أو بغية العثور على ما يمكن أن يرجى منه أى نفع . وبين حين وآخر كانت تقع لأحدهم سلال أو قدور قديمة مليئة بلفائف البردى المثقلة بالطين ، فيطرحها بإهمال أو يلقى بها حطباً للنار .

ولا يدرى أحد على وجه التحقيق ، كم من هذه الودائع تلف وضاع ، قبل العثور سنة ١٧٨٠ على "مجموعة دمياط" التى أحرقت بأمر مشايخ القاهرة ، لاحتمال أن تكون بها نصوص من الكفريات التى لا تحل مطالعتها فى ديار الإسلام .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية : فعلى وهج النار التى التهمت مجموعة دمياط ، التفتت أوربا إلى هذا الكنز الذى هان على أهله . وبدأ عملاؤها الذين كانوا يجوسون خلال الديار بحثاً عما تطوى أرضها من آثار ، يلتمسون البردى ويتسابقون على البحث عنه ويتنافسون على شراء ما يقع منه لتجار الآثار أو الفلاحين أو البدو . وامتدت هذه المرحلة إلى قرب منتصف القرن العشرين ، وفيها نشط البحث عن البردى واشتركت فيه بعثات الحفر الأثرية الأوربية ، إلى جانب نشاط علماء الآثار وقناصل أوربا وتجارها وعلمائها فى تتبع ما يعثر عليه أبناء البلد من البردى

وكان أكثر النشاط موجهاً إلى الفيوم والوجه القبلى بحكم جفاف المنطقة وقدرتها على الاحتفاظ بمثل هذه الودائع . فانتشرت بعثات الحفر وطلاب البردى تفتش فى أطلال الفيوم ومنف والأشمونين والبهنسا وأهناسيا وأخميم وأسيوط وإدفو وطما والنوبة . واتجه بعضها إلى الفسطاط والدلتا وكوم القلزم قرب السويس . ولم تنته هذه المرحلة ، قبل منتصف هذا القرن ، إلا بعد أن تسربت ذخائر العرب من بلدنا وتقاسمتها دول الغرب من شيكاجو إلى لينجراد ، ومن فلورنسا إلى أوسلو .

وفيما يلى بيان إحصائى لمصير البردية المصرى ، نقلاً عن سجلات ألبرتينا ودليل كراباتشك وأحدث كتاب للدكتور جروهمان :

أوربا

النمسا :

تمتلك ڤيينا "مجموعة الأرشيدوق راينر" المودعة فى خزائن ألبرتينا بالمكتبة القومية . وسأفرد لها حديثاً خاصاً فى هذا التقرير لأهميتها وخطرها ، ولأنها كانت موضع دراستى فى المهمة العلمية التى أوفدت لها .

وفى إنسبروك Innsbruck مجموعة من مائة وأربع برديات اقتنتها الجامعة عن طريق جروهمان ، وفيها برديتان من الأشمونين . أما الباقى فما عثر عليه فى الفسطاط وقرب طنطا ، على ندرة ما أعطى الوجه البحرى من هذه الذخائر .

ألمانيا :

فى برلين : مجموعة المتحف المصرى هناك . وكان يقتنى عدداً لا بأس به من البردى قبل أن يظفر بالصفقة التى اشتراها تراڤرس .Tracvers عام ١٨٧٧ من بردى الفيوم والبهنسا . ثم أضيف إليه ما اشتراه القنصل روجرز .Rogers والأستاذ بورجتش Burgsch ، والقنصل شميت .Schmidt والدكتور بوك .Boock وأصلها من الفيوم . وفى عام ١٨٨٦ اشترى شتادر .Stader مجموعة من البردى كان

المهندس .Stern يملكها واقتناها المتحف كما اقتنى ما عثر عليه الأستاذ شفاينفورث Schweinfurth من منطقة الفيوم وأهناسيا . وتبع ذلك شراء مجموعة بورجسن وما عثرت عليه بعثات الحفر الألمانية فى الأشمونين (١٩٠٥) والنوبة وجزيرة فيلة وأسيوط (١٩١٠) وفى عام ١٩٥٢ قام الأستاذ شوبرت Schubert المشرف على مجموعة البردى فى متحف برلين برحلة إلى مصر ، فاستطاع شراء ١٢٧ بردية قيمة من بردى الفيوم وأهناسيا والأشمونين . وتلقى المتحف عام ١٩٢٨ سبعاً وعشرين بردية أرسلها بيكر Becker .

وفى متحف الخط ببرلين أيضاً مجموعات خاصة ، أشهرها مجموعة الدكتور إيبشر .Ibscher وأصلها من الأشمونين . ومجموعة يوليوس كورت Kurth,J ومجموعة شميت .Schmidt .

وفى مدينة جيسن .Giessen: توجد مجموعة بردى .Jand فى المعهد التحضيرى للدراسات اللغوية بجامعة لودفيج . كما يمتلك المتحف التاريخى فى المدينة ثمانى قطع عربية من الفيوم والأشمونين .

واقتنت جامعة هامبورج عام ١٩٠٧ وثائق من البردى المصرى الإغريقى . ثم بدأت بعد عامين تهتم بالبردى العربى بإلحاح من الأستاذ بيكر . واستطاعت فيما بين عامى ١٩١٠ : ١٩١٢ أن تظفر بذخائر من بردى الفيوم والبهنسا والأشمونين وأدفو وأسوان ، فوصلت المجموعة عام ١٩٣٨ ، إلى مائة وثلاثين بردية ، أشرف الأستاذ « إيبشر » على فكها وصيانتها بين ألواح من الزجاج .

واقتنت مكتبة جامعة هايدلبرج عام ١٨٩٧ مجموعة من بردى الفيوم وأخميم والأشمونين ، اشتراها الدكتور راينهارت Reinhardt ؛ معظمها مكتوب بالعربية وقليل منه بالعبرية . وبعد أعوام ظفرت الجامعة بالمجموعة الخاصة بالدكتور راينهارت وعددها ألف بردية أكثرها باللغة العربية ، وجزء منها باللغات القبطية والسوريانية والإغريقية والفهلوية. وكانت المجموعة قد آلت سنة ١٩٠٣ بعد وفاة الدكتور راينهارت — بوصية منه — إلى صديقه شوت Schott مدير جامعة هايدلبرج الذى قدمها بدوره هدية إلى الجامعة فأطلقت عليها اسم "بردى شوت — راينهارت : — Sohott Reinhardt" تحية ذكرى وتكريم لمن جمعها ومن أهداها . وأصل المجموعة

من بردى أهناسيا وكوم اشقاو وأخميم والفيوم والأشمونين . وقد نمت بعد ذلك بما أضيف إليها من نتائج حفريات مجمع هايدلبرج والجمعية العلمية فى فرايبورج عام ١٩١٤ ، إلى جانب تسع وخمسين بردية عربية من الفسطاط ، جاء بها الدكتور جروهمان . وتولى عدد من المستشرقين الألمان فحص البردى العربى فى مجموعة هايدلبرج ، منهم الأساتذة بيكر وسايدل وبيلابيل Becher, Seidl, Bilabel .

وفى مكتبة جامعة لايبزج مجموعة ثمينة من بردى الفيوم ، جاء بها الأستاذ لوت Loth من القاهرة عام ١٨٧٩ . مع مقدار آخر أرسل إلى برلين .

وفى ميونيخ تقتنى المكتبة البافارية تسع برديات عربية وبردية إغريقية عربية .

كما يوجد فى مكتبة مونستر عدد من البرديات العربية اشتراها « الأستاذ تاشنر » من القاهرة . ومنها ما يرجع إلى القرن الثالث الهجرى ، ولم ينشر منها شىء ، وإن كانت قد فُكتْ وحفظت بين ألواح من زجاج .

بريطانيا

فى كمبردج : نص سحرى ، عربى قبطى — لعله تميمة أو حجاب — مودع بمكتبة الجامعة وقد نشره كروم وكراب : Crum, W. & Krapp, A.

وفى لندن : بالمتحف البريطانى ، مجموعة صغيرة قيمة من البردى والرق العربى أصلها من سقارة والفيوم والأشمونين ، إلى جانب مجموعة من نصوص المراسيم والصكوك من بردى الأشمونين وكوم إشقاو . وقد شارك فى فحصها ودراستها : جروهمان وكروم وبيكر وبل وبيلابل .

وفى مانشستر : يحتوى كنز المخطوطات الشرقية الذى تملكه مكتبة جون رايلاند : John Ryland's Lib. على مجموعة ثمينة من ستمائة بردية عربية أكثرها من الأشمونين . وكان « إيرل كراوفورد : Earl Crowford » قد اشتراها من مصر عام ١٨٩٩ وحملها إلى قصره فى أسكتلندا فاشترتها مكتبة جون رايلاند سنة ١٩٠١ . وكانت هذه المجموعة جزءاً من مجموعة كبرى من بضعة آلاف بردية اشتراها كارلو جراف لاندبرج Carlo Graf Landberg سنة ١٨٩٨ وذهب أكثرها إلى مجموعة الأرشيدوق رانر

فى ڤيينا . ويعتقد : « جروهمان » أن المجموعتين تكمل إحداهما الأخرى ، وقد نشرت مختارات من مجموعة كراوفورد ، عام ١٩٠٩ بمعرفة كروم ومرجليوث .

وفى عام ١٩٣٣ نشر مارجليوث الكتالوج العبرى ، وفيه وصف لثلاثمائة وأربعين بردية مع ترجمة لبعضها .

وفى أكسفورد : تقتنى مكتبة البودليانا Bodliana مجموعة غنية من البردى بينها أربع وتسعون بردية عربية بدأت بما جاء به شستر Chester من بردى الفيوم ما بين عامى ١٨٧٨ و ١٨٨٤ ، ثم تلتها مشتريات المستشرق دى ساسى De Sacy عام ١٨٨٨ وكانيبيرا Canybeare عام ١٨٩٦ وبيترى Petrie عام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ ثم دى ساسى مرة أخرى عام ١٩٣٣ ، وفيها ست عشرة بردية مما عثر عليه فى كوم إشقاو ، وأحدثها مؤرخة فى سنة ٣٢٩ هـ .

ولم ينشر من مجموعة أكسفورد سوى أربعة نصوص بمعرفة مارجليوث ، منها خطابان عربيان نشرهما سنة ١٨٩٣ ، ونصان عربيان — إغريقيان نشرهما عام ١٨٩٧ ويرجع تاريخهما إلى عام ٧١٩ م ، وإن كان النص العربى فيهما مطموساً .

فرنسا

تتكون مجموعة متحف اللوفر بباريس من ثلاثمائة وست برديات عربية لم ينشر منها شىء حتى الآن . وأكثرها جاء من الفيوم .

وفى مخطوطات المكتبة القومية Bibliotheque Nationale اثنتان وعشرون بردية عربية ، منها البرديتان اللتان أهداهما دروڤيتى Drovetti. B. إلى ملك فرنسا ، وأصلهما من سقارة ، وقد نشرها دى ساسى .

وفى ستراسبورج : اقتنت الجامعة والمكتبة مجموعة جميلة من البردى ، بفضل جهود « Spieglberge, Reitzenstein & Preisighen » وقد نمت تباعاً بما أضيف إليها مما اشتراه مايرهوف Meyerhof, M. ، ورايتهارت Reinnardt ، وبوركارت Borchardt . وتضم المجموعة إحدى عشرة بردية عربية — قبطية ، وثلاثاً إغريقية — عربية ، وستمائة وثمانين بردية عربية .

كما تمتلك جمعية ستراسبورج العلمية ثلاثاً وعشرين بردية عربية ، وقد نشر « بيكر » اثنى عشر بردية عربية إغريقية ، أصلها من كوم إشقاو بطما .

إيطاليا

فى معهد البردى بفلورنسا ، عدد من البردى العربية عهد بدراستها إلى المستشرق ليفى ديللافيدا Levi della Vida . وفى المعهد أيضاً مجموعة من البردى الرائع باللغتين الإغريقية واللاتينية .

وظفرت ميلانو بمجموعة من البردى العربية ، جاء بها فوليانو أثناء رياسته لبعثة الحفر الإيطالية بمصر ، وأضيفت إليها بعد ذلك كمية أخرى ، لا يعرف عددها .

تشيكوسلوفاكيا

فى المعهد الشرقى بمدينة براج "مجموعة ڤيسيللى C. Weselly" الثمينة المكونة من ٨١٨٢ قطعة ، منها ٨٩٧ بردية عربية . وكان ڤيسيللى قد اشتراها عام ١٩٠٤ من تاجر أرمنى فى باريس ، وآلت بعد وفاة ڤيسيللى بوصية منه إلى الأستاذ هوفنر Hopfner, Th. فى براج فباعها فى يونيو ١٩٣٤ إلى المعهد الشرقى. ومن هذه المجموعة نشر جروهمان ستة وتسعين نصاً ، فيما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ وأكثرها — على الأرجح — من الفيوم والأشمونين .

الاتحاد السوڤييتى

توجد ثلاث مجموعات : واحدة فى موسكو ، يقتنيها متحف الفنون الجميلة وقد جمعها جولينتشيف V.S. Goleniscev من مصر عام ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ منها نحو مائة بردية عربية ، وبعض البرديات العربية والإغريقية ، والقبطية .

ومجموعتان فى لينينجراد ، أولاهما مجموعة ليشاكوف N. Lichacov التى اشتراها من القاهرة وفيها عدد من بردى كوم إشقاو ، والأخرى فى المجمع العلمى فى لينينجراد — المتحف الباليوجرافى سابقاً — وفيها مائة صك نشر بعضها بمعرفة بريبلكين Berepelkin عام ١٩٣٦ فى دليل « معرض الخط فى العصور القديمة والوسطى » .

أما مجموعة موسكو فلم ينشر منها شيء . وكان كراتشكوفسكى Krackovskij وبارتولد Bartold قد مهدا للبحث العلمى نصوص على البردى العربية قبل الثورة . لكن لم يتم العمل . وفى عام ١٩٣٤ أدخل « معهد الكتاب » فى برنامج عمله ، البحث عن البردى العربى ودراسة مجموعتى لينينجراد ومجموعة موسكو ، ولم تنشر نتائج هذا العمل ، فيما أعلم .

بولندا

اقتنت جامعة وارسو عام ١٩٣٣ تسعاً وأربعين بردية عربية من الفيوم أهداها إليها الأستاذ شميت . ثم أضيف إليها بعد ذلك ، ما جاءت به بعثة حفريات الجامعة بالاشتراك مع المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، عام ١٩٣٧ .

وتوجد فى مجموعة بردى "المعهد التحضيرى للغويات" بالجامعة ، أربع برديات عربية منها ثلاث رسائل .

* * *

وحرصت دول أوربية أخرى — لم تشترك فى السباق على البردى — على اقتناء بعض نماذج منه :

فى سويسرا :

يوجد فى متحف أراو Arrau الطبيعى عدد من وثائق البردى يعتقد أن تشوكر Zschokker جاء بها من القاهرة فى أخريات القرن التاسع عشر ، ووضعت فى متحف الجمعية التجارية ، ثم آلت إلى المتحف الطبيعى .

وفى النرويج :

توجد فى مكتبة جامعة أوسلو مجموعة من البردى المصرية نحو مائتين إلى ثلاثمائة جاء بها الدكتور أيتفرم .S Eitverm من القاهرة .

وفى المتحف العثمانى بالقسطنطينية " تركيا" بردية عربية من كوم إشقاو ، نشرها بيكر .

أمريكا

اقتنت جامعة ميتشجان سنة ١٩٣١ مجموعة من البردى المصرية ، فيها خمس وستون بردية عربية . ثم أضيفت إليها عام ١٩٣٢ مجموعة أخرى من أجمل البرديات ، أصلها من الأشمونيين ، وقد اهتم الاستاذ واريل Worell بدراسة هذه المجموعة المصرية من البردى والرق والمخطوطات التى جمعها مورتس B.Mritz خلال إقامته الطويلة بمصر مديراً لدار الكتب الخديوية ، وعندما رحل عن مصر حملها معه ثم باعها :

وبعد سنتين اشترت الجامعة سبعين بردية عربية عن طريق الأستاذ بونر Bonner . وفى أعمال سريعة متلاحقة نشر أبوت Abbott ثلاث عشرة بردية عربية من تلك المجموعة ، منها رسائل من القرن الأول الهجرى (٩٠ ، ٩١ هـ) ونصوص عن أديرة الفيوم ، ووثائق من عهد الخليفة المتوكل على الله ، وعقدان من عقود الزواج العربية .

البلاد العربية

مصر :

لم تظفر مصر من كنزها الذى تقاسمته دول الغرب ، بغير مجموعتين فى القاهرة أولاهما فى دار الكتب وعددها نحو ألف بردية ، ويرجع الفضل فى تأسيس المجموعة إلى الأستاذ «موريتس» ، الذى كان مديراً للدار من عام ١٨٩٦ إلى ١٩١١ فاشترى لحسابها بعض القطع ، مع ما كان يشتريه لمجموعته الخاصة . ثم جاءت بعض القطع هدية إلى الدار ، وأضيف إليها ما اشتراه ميشيل كازيرا Michel Casira من بردى الفيوم والأشمونين فى الأعوام من ١٩٠٢ إل ١٩٠٥ .

وفى فبراير ١٩٠٦ ، ضم إلى المجموعة عدد من نادر البردى كان فى حوزة مصرى من الجيزة اسمه « الشيخ على» فبلغ رصيد الدار من البردى فى عهد « موريتس » ألف قطعة زادت بعد ذلك بما أضيف إليها من بردى الفيوم والأشمونين والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا .

"وموريتس" هو الذى قام كذلك بإعداد المجموعات فى صالة العرض ، وقد استكمل معرض البردى بعد ذلك فى عام ١٩٣٩ وشارك الدكتور إيبشر .Ibscher فى صيانته وإعداده ، وكان من المقرر طبع دليل عن مقتنيات الدار من البردى عام ١٩٣٩ ولكن الحرب حالت دون ذلك .

ونشر عن هذه المجموعة مقال لموريتس عام ١٩٠٥ ، وآخر فى مادة الخط العربى بدائرة المعارف الإسلامية . وثالث فى الجزء الخامس من حوليات الإسلام لكايتانى ، .Annali dell Islam وأعاد بيكر نشر القطع التى نشرها موريتس ، مع ترجمة وتعليق ، بعد إقامة قصيرة فى القاهرة عام ١٩١١ . ثم كان جروهمان هو الذى اشتغل بدراسة مجموعة دار الكتب فنشر بمعاونة موريتس عام ١٩٢٤ ثمانية نصوص ديوانية "مراسيم" ثم وضع برنامجاً لنشر المجموعة فظهر الجزء الأول عام ١٩٣٤ وفيه اثنان وسبعون مرسوماً ديوانياً ، والجزء الثانى عام ١٩٣٦ وفيه ثلاثة وسبعون

صكًّا رسميًّا أيضاً ، والجزء الثالث عام ١٩٣٩ وفيه ٦٩ نصًّا من الديوانيات ، وأعد للنشر الجزء الرابع وفيه ٧٤ نصًّا ، والخامس والسادس وفيهما ١٧٤ وثيقة من تاريخنا الاقتصادى ، ويختص الجزء السابع بصكوك الضرائب ، والثامن بالرسائل والأدب . وترك لدار الكتب نشر هذه الأجزء خدمة لتراثها الوطنى . وفى عام ١٩٣٤ نشر جروهمان محاضرة عن "بردى دار الكتب" كان قد ألقاها فى الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٣٢ .

والمجموعة المصرية الثانية موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة . وأغلبها قبطى لم ينشر عنها إلا بحث للمستشرق كازانوفا P. Cassanova . كما نشرت بعض نصوص عربية كانت ضمن صكوك قبطية ، من ترجمة سلان Slanes وطبع جياسكو بعض هذه النصوص سنة ١٨٨١ .

وبالإضافة إلى مجموعتى دار الكتب والمتحف المصرى ، تقتنى دار الآثار العربية رقين من جلد الغزال عليهما عقدان تجاريان وبعض البردى من حفريات الفسطاط وإدفو ، مما عثرت عليه بعثة المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، وذكر جروهمان أن بالقاهرة عدداً من المجموعات الخاصة أهمها مجموعة ميكاليدس G. michaelides ، ومجموعة مايرهوف ، ومحمد على سعودى بعين شمس (؟) .

* * *

وفيما عدا القاهرة لا تشير سجلات البردى بقيينا إلى وجود شىء منه فى الأقطار العربية ، عدا مجموعة أستاذنا « حسن حسنى عبد الوهاب » بتونس ، كما لا تشير إلى أى أثر للبردى فى الشرق الآسيوى الإفريقى .

(٣)

مجموعة راينر فى ألبرتينا

(مكتبة ڤيينا القومية)

وأتحدث الآن عن مجموعة ڤيينا وهى أكبر وأغنى مجموعة من البردى المصرية فى العالم كله . وقد استطعت من مطالعتى للوثائق والسجلات الخاصة بها فى محفوظات ألبرتينا أن أتتبع القصة المثيرة من أولها ، حيث يتكرر المشهد بصورة أو بأخرى فيما آل إلى بقية الدول الغربية التى اشتركت فى السباق على الظفر بودائع هانت علينا من تراث أجدادنا .

والغريب أن النمسا لم تتجه إلى الاشتراك فى السباق على البردى منذ بدأ فى أوائل القرن الماضى ، بل إنها حين بلغ السباق ذروته فى الربع الأخير من ذلك القرن ، كانت لا تزال زاهدة فيه منصرفة عنه . وفى الوقت الذى تنافس فيه قناصل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا على شراء ما يُعرض من البضاعة فى أسواق القاهرة والصعيد ، وقف قنصل النمسا بمعزل تماماً عن السباق كله ، وترك زملاءه الآخرين يتقاسمون الغنيمة . بل إن العالم النمساوى المستشرق « كراباتشيك » والتاجر « تيودور جراف » اللذين كسبا للنمسا مجموعتها الكبرى ، لم يهتما بالبردى فى بادىء الأمر ، وإنما كان أولهما مشغولاً بهوايته لفن النسيج الشرقى وكان الآخر مشغولاً بتجارة السجاجيد ، يحمل منها إلى ڤيينا روائع القطع الأثرية النادرة فى رحلاته التجارية إلى مصر ، حيث أقام سنوات طويلة مستشاراً لبيت تجارى كبير فى الإسكندرية ، ومن هنا نشأت الصلة الوثيقة بين تاجر السجاجيد وبين المستشرق الهاوى للمنسوجات الأثرية ، فكان جراف يربط كل رحلة تجارية إلى مصر ، بالغرض العلمى الذى يهم صاحبه . واستطاع قبل الثورة العرابية أن يرسل إلى ڤيينا مجموعة نادرة من السجاجيد الشرقية لم تشاهد عاصمة النمسا لها مثيلاً من قبل .

وبلغ من اهتمام « كاراباتشك » بهذه البضاعة الأثرية أن أغرى « جراف »

بالحفر فى المناطق الجافة بالصعيد عن مقابر العصور التى تلت عصر الفراعنة بمصر ، أملاً فى العثور على خرق من النسيج فى عهد الإغريق والرومان ، وكانت مفاجأة لكاراباتشيك أن بعث إليه صاحبه ، فى عامى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ م بعض خرق البردى ضمن مجموعة من قطع النسيج القديمة . ومن هنا بدأ اهتمام « كاراباتشيك » بالبردى المصرى ، وبدأت فى الوقت نفسه قصة المجموعة الثمينة التى تعدها النمسا اليوم ، من أمجد مآثرها على تاريخ الحضارة ، فما كادت البرديات تصل إلى العالم المستشرق حتى لفت صديقه التاجر إلى أهمية هذه الخرق ، وألح عليه فى بذل أقصى الجهد للظفر بأكبر قدر منها .

ولم يكن للقناصل الأوربيين الذين جندتهم دُوَلهم للسباق على الكنز قبل تنظيم البعثات الحفرية ، من الخبرة بالسوق والصلة بأبناء البلد ، مثل ما لهذا التاجر الخبير الذى لم يكد يدخل الميدان حتى خرج من الجولة الأولى بمجموعة من لفائف بردى الفيوم وأهناسيا مقدارها عشرة آلاف بردية ، ظهر بعد الفحص أنها مكتوبة بست لغات ، ومنها ثلاثة آلاف بردية عربية ! وعرفت برديات هذه الصفقة فى الدوائر العلمية فى أوربا بمجموعة "جراف أو مجموعة الفيوم الأولى : Der erste Fayumer Fund" .

وتلقى « كاراباتشيك » هذه البضاعة وهو لا يكاد يصدق أنها صارت إليه ، لكنه حين حاول فحص نصوصها ، وجد البرديات فى حالة تعسة ، فإلى جانب ما تآكل منها وعبث به الدود ، كانت هناك ألوف من اللفائف المتحجرة لطول المدى على طيها ، مع ما تراكم فوقها من الطين الجاف ، ومنها ما كان مربوطاً بخيوط من الصوف أو ما كان مخيطاً من أحد جوانبه على هيئة كراسات . وكانت محاولات فكها تعرضها للتمزق والتلف ، ما لم تبذل عناية تامة لإزالة الطين منها وتطريتها ، كى يمكن فردها وفحصها . وكان المعروف أن قدراً هائلاً مما عثر عليه البدو والفلاحون فى خرائب الصعيد قد تلف تماماً عندما حاولوا فك اللفائف بغمرها فى الماء . من هنا اتجهت محاولة « كاراباتشيك » أول الأمر إلى تطرية اللفائف شبه المتحجرة بتعريضها لبخار الماء الساخن ، لكنه ما لبث أن عدل عن هذه الطريقة التى طمست بعض النصوص ، إلى طريقة التطرية الباردة التى جربها الألمان بنجاح

فى صفقة « القنصل تراڤرس سنة ١٨٧٧ » .

وبعد عمل شاق متواصل وجهود مضنية أمكن فك اللفائف الملتوية وفتح الكراسات الملتصقة .

وكشف الفحص السريع لما تم تنظيفه وتطريته ، عن وجود نصوص ذات أهمية لا تقدر ، فكانت الخطوة الثانية ، تصنيف برديات المجموعة ، فى فئات متجانسة لغة أو متقاربة زمناً أو متكاملة قطعاً ونصاً . واقتضى تعدد لغاتها الاستعانة بعلماء فى اللغات العربية والسامية والفارسية والفهلوية والقبطية واليونانية ، وكلما تم تجهيز إحدى البرديات وضعت بعناية فى إطار بين لوحين من الزجاج برقم مسلسل .

* * *

وتقدم العمل بفضل الجهود المتآزرة مع الخبرة الفنية والعلمية بحيث أمكن إعداد مئات من البرديات التى تم فحصها وتنسيقها ، وأقيم لها معرض فى السابع والعشرين من مارس ١٨٨٣ بالمتحف النمسوى للفنون . وألقى « كاراباتشيك » فى حفل الافتتاح محاضرة عن قيمة هذه الوثائق وأهميتها والنتائج الأولى لبحوثه وبحوث زملائه من العلماء كما قدم ثمرة العمل فى دليل مفصل مطبوع .

ولكن المتحف النمساوى لم يبد مع ذلك رغبة ما فى شراء هذه المجموعة الثمينة واقتنائها . وعبثاً حاول « كاراباتشيك » أن يقنعه بضرورة شرائها ، وخاصة بعد أن تحرج الموقف : فالتاجر « جراف » قد دفع ثمنها من ماله الخاص ، وقد طال انتظاره للبت فى موضوع شراء النمسا لها ، فى الوقت الذى تعرض فيه لضغط إلحاح شديد ومساومة مرهقة من بعض الدول الأوربية ، وبخاصة ألمانيا التى أبدت استعدادها لشراء المجموعة بالثمن الذى يرضيه .

وبدا كأن النمسا توشك أن تفقد ما وصل إلى عاصمتها من كنز البردى ، لولا أن سعى كاراباتشيك لدى « الأرشيدوق راينر » — راعى المجمع العلمى فى ذلك الوقت — ونجح المسعى فدفع الأمير ثمن المجموعة كلها . وأبقاها باسمه فى متحف ڤيينا ، ثم أضاف إليها المجموعة التى اقتناها « كرال » أثناء مقامه بمصر سنة ١٨٨٢ كما آلت إلى « راينر » بعد ذلك مجموعة العالم الأثرى « شڤانيفورت

Schweinfurth. » التى عرضها للبيع فى سوق القاهرة سنة ١٨٨٦ ، ونجح التاجر جراف فى شرائها . وهى التى تعرف "بمجموعة الفيوم الثانية Der zweite Fayumer Fund".

وظل الرصيد ينمو بما أضيف إلى مجموعة جراف مما كان جراف وغيره يرسلونه إلى ڤيينا ، من جديدِ ما يعثر عليه من لفائف البردى المصرية ، ومنه كتاب الموتى Totenbuch الذى جاء به هاينريش Heinrich ، ومخطوطات من هوميروس جاء بها فسيلى Wessely فضلاً عما اشتراه العالم الأثرى جراف لاندبرج Graf Landberg الذى كان يقوم إذ ذاك بحفريات فى الجنوب العربى موفداً من مجمع ڤيينا للعلوم . وقد ألح عليه زميله كاراباتشيك أن يمر بالقاهرة لشراء ما يمكن شراؤه من البردى فاستجاب لاندبرج لرجاء زميله ومر بالقاهرة فى خريف عام ١٨٩٨ ، وقد تم فى هذا العام شراء آلاف من بردى الأشمونين تمتاز بدقتها وتفوقها ولونها البنى الفريد . وكانت كل المشتريات تتم لحساب الأرشيدوق راينر Erzherzog Rainer. وتضاف إلى مجموعته التى بقيت فى متحف الفنون بين أيدى الخبراء والدارسين .

* * *

وقبل أن تلتفت مصر إلى تسرب هذا الكنز من أرضها ، كانت "مجموعة راينر" قد بلغت نحو سبعين ألف بردية ! وفى أغسطس ١٨٩٩ قدمها الأمير إلى مكتبة البلاط الإمبراطورى ، هديةَ عيد الميلاد للقيصر « فرانز جوزيف Franz Josef » وكان كاراباتشيك قد عين مديراً للمكتبة قبل ذلك ، حيث عاش ما بقى من عمره متفرغاً للمجموعة ، ينميها ويرعاها ويفحصها ويدرسها بمعونة عدد من العلماء والخبراء ، إلى أن مات فى التاسع من أكتوبر ١٩١٨ وبقيت المجموعة من بعده فى مبنى ألبرتينا بمكتبة ڤيينا ، ذخيرة قومية غالية ، ومزاراً للعلماء والسائحين من أنحاء العالم الغربى المعاصر .

وكل هذا الذى أشرت إليه من مجموعة بردى ڤيينا ، لم يكن شىء منه مجهولاً للمستشرقين وعلماء المصريات ومؤرخى الحضارة من الغربيين ، فمنذ عام ١٨٨٣ تتابعت المنشورات من البحوث والوثائق كاشفة عن قيمة هذا الكنز ومحصية ذخائره ومعلنة عن أشخاص الأبطال الثلاثة الذين كسبوا للنمسا أكبر جولة فى السباق

وجعلوا من ڤيينا العاصمة الأولى لدراسة البردى . لكن بقى وراء هذا المعلوم من القصة ، أسرار خفية لم يكن أحد يدرى بها سوى أولئك الثلاثة ، حتى ظهر كتاب هربرت هونجر .Hunger.H فى ڤيينا ١٩٦٢ فأذاع كل الأسرار المطوية بنشر نصوص الرسائل التى تبودلت بين تاجر السجاجيد تيودور جراف ، والمستشرق يوسف كاراباتشيك ، والأرشيدوق راينر . وتبدأ الرسائل من عام ١٨٨١ حيث بدأ كاراباتشيك يحث صديقه العزيز « تيودوجراف » على البحث عن البردى فى خرائب الصعيد وأطلال الفيوم ، دون أن يكون للتاجر خبرة بقيمة البضاعة المطلوبة والثمن الذى يجوز لمثله أن يدفعه . ومن القاهرة بعث « جراف » إلى صديقه الأستاذ خطاباً مؤرخاً فى ١٨٨١/٣/٨ جاء فيه[١] :

« . . . بعد رسالتى الأخيرة التى طلبت فيها نصيحتكم بخصوص شراء السجادة الدمشقية القديمة ، يسرنى أن أبلغكم اليوم أن بحثى عن قطع البردى انتهى بنجاح ، وإن تكن قطعاً صغيرة . ولعل قيمتها فى أنها مكتوبة بعدة لغات من أقدم العصور . ومن الصعب على أى حال العثور على لفائف كبيرة سالمة من الضرر . وأنا أتابع فى الوقت الحاضر البحث بحماس مع الأمل فى النجاح . وقد أرسلت إليكم هذه القطع بالبريد المسجل وآمل أن تخبرنى قريباً عما إذا كان لها قيمة ؟ وما قيمتها ؟ وهل أستمر فى إرسال القطع الصغيرة إذا لم أوفق فى العثور على لفائف كبيرة ؟

« الواقع أنى لا أدرى هل تستحق هذه القطع المرسلة إليك ما دفعته فيها من ثمن ؟ وسوف أسافر إلى أسيوط بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولعل أعود من رحلتى بنتائج طيبة . . . » .

ومن ڤيينا جاء رد « كاراباتشيك » مؤرخاً فى ١٨٨١/٤/٩ :

« . . . والآن إلى البردى ! كنتَ على حق إذ أرسلت هذه اللفائف الصغيرة ، ففيها قطع جميلة لا يزال خطها واضحاً جديداً ، وبعض هذه القطع كاملة . ومنها صك من عام ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) وفى الجزء الأخير منه ، صيغة كاملة وردت مبتورة فى بردية أخرى بتاريخ ١٨٠ هـ ، ولم يكن من المستطاع إكمالها لولا الظفر

(١) الترجمة العربية لهذه الرسائل ، لابنتى « أديبة أمين الخولى » عن النص الألمانى فى كتاب هونجر عن ڤيينا سنة ١٩٦٢ .

بالصيغة نفسها تامة ، فى هذه البردية التى أرسلتها مع الدفعة الجديدة . ومع سرورى البالغ بجمال هذه القطع وقيمتها ، لا أزال ألح فى طلب مزيدٍ منها ، فإن قطعة صغيرة من صكٍّ أو وثيقة ما ، يمكن أن تضىء لنا ما ظل غامضاً علينا لمدى طويل . واكتبْ لى فى خطابك التالى بياناً عن حالة الأختام على اللفائف ومدى سلامتها . . .

« وعشرون فرنكاً للقطعة قد تبدو غالية . لكن سوف نرى . وعلى أى حال لن تصاب بخسارة ما ، ولى رجاء : تجد على زاوية الصفحة الأخيرة من خطابى ، ثلاث عبارات عربية ، لها دلالة خاصة فى العربية ، وتستطيع أن تستفسر لى من بعض أصحابك العرب ، عما إذا كانت لا تزال مستعملة إلى اليوم بدلالتها القديمة ؟ وثق أننى سوف أدين لك بكثير إذا ما قمت لى بهذه المهمة ، ولكن يجب ألا تذكر إطلاقاً أن هذه العبارات منقولة من نصوص البردى ، بل يكفى أن تقول إنها وردت فى مخطوط قديم »[1] .

* * *

والرسائل التى بعثها جراف من مصر عام ١٨٨٢ تنم عن قلقه البالغ بسبب أحداث الثورة العرابية ، وما يمكن أن تسبب من تعطل التجارة بعد أن تقدم العمل فى البردى بسرعة مذهلة ونجاح باهر . لكنه استطاع مع ذلك ، أن ينظم العمل بفضل رجاله من الأعراب الذين كانوا يجوسون خلال الديار ويحملون البضاعة إليه حيثما كان ، فى حرص وأمان ، فنقرأ فى رسالة منه إلى كاراباتشيك بتاريخ ١٨٨٢/٤/١١ :

« رجالى العرب Meine Araber قد تعلموا الآن جيداً ، ودُربوا على العمل تدريباً طيباً . وحتى فى حالة اضطرارى إلى الغياب عن مصر ، فإنهم سوف يحفظون لى كل ما يعثرون عليه من البردى ، ومنذ ثمانية أيام وهم غائبون عن القاهرة فى جولة لجمع البضاعة ، وأنتظر عودتهم بصبر نافد ، وأطمع فى أن يحضروا لى هذه المرة شيئاً رائعاً . . . » .

---

(١) يعلق الدكتور هونجر ناشر الرسائل على هذه الفقرة بقوله : « كل ما يتعلق بالبردى كان يتم فى الخفاء بصورة أو بأخرى ، وقد حذر كاراباتشيك ، فى خطابه رقم ١١ إلى تيودور جراف ، من الكلام فى مصر عن وصول شىء من البردى إلى فيينا » .

ثم كتب من القاهرة بعد خمسة أيام :

« . . . وقد تسلمت خطابك اللطيف ، ويؤلمنى حقاً أن الطرد الذى بعثته إليك — وفيه أقمشة أثرية وبردى وعملات ذهبية قديمة — لم يكن قد وصل إليك فى قيينا ، حتى اليوم الخامس من أبريل . ولابد أن رحلة الباخرة كانت سيئة لتأخر وصولها إلى تريستا . . .

وأنت ترى أننى أسير فى الطريق السليم ، وأرجو أن أوافيك قريباً بأشياء هامة مما نعثر عليه . وقد أحضر رجالى العرب تحفاً مصرية أثرية ستأخذ طريقها إلى قيينا ، ثم عادوا إلى الصعيد يستأنفون بحثهم. وقد انتظم العمل بحيث يجد ما يعثرون عليه ، طريقه المأمون إلىّ ، ولو لم أكن موجوداً بمصر . . .

وقد زرت القنصل العام بالإسكندرية « البارون كوزبيك » ولم تتح لى فرصة لقائه ، لكن البارونة استقبلتنى بلطف زائد . وإذ كانت مهتمة بالسجاد القديم ، أهديت إليها نسخة من كتابك عنه .

وأرجو أن يصلنى يوم الخميس خطاب منك عن الأقمشة والبردى والنقود الأثرية التى بعثت بها إليك ، فأنت لا تتصور مقدار لهفتى على وصولها ومعرفة رأيك فيها .

بالأمس كنت فى طنطا ، وعدت إلى القاهرة فى المساء. ونحن نعيش هنا فى وقت عصيب بسبب الأحداث السياسية . وقد اكتُشِفتْ مؤامرة على حياة "عرابى باشا" البطل الأسطورى ، فى اليوم الحادى عشر من هذا الشهر . ولا يدرى أحد ما تأتى به الأيام القادمة ، وإن شاء الله سأسافر إلى الإسكندرية ومنها إلى تريستا حيث أرجو أن أكون عندك بقيينا فى آخر الشهر » .

* * *

ووصل جراف إلى قيينا ، فلم يجد صديقه الدكتور كاراباتشيك هناك فبعث إليه رسالة بتاريخ ١٨٨٢/٥/٨ يقول فيها :

« صديقى العزيز . . . جاءنى فى بريد اليوم من مصر نبأ سار : تم شراء صفقة جديدة من الأقمشة الأثرية ، قد تصل إلى قيينا فى الأسبوع القادم . وكتب لى

نائبى بالقاهرة أن من بينها قطعة طولها نصف متر ، وعرضها عشرون سنتيمتراً ، مطرزة بنقوش رائعة ، ويمكن أن تعد أجمل القطع التى اشتريت إلى الآن على الإطلاق. وسوف يسرنى أن تكون القطعة من الصناعة الساسانية حتى تُثرى مجموعتنا . وقد يواتينا الحظ فنعثر على روائع أخرى رومانية وإغريقية قديمة ، فالذى لا شك فيه أن كثيراً منها مدفون فى رمال مصر . . . »

وظل جراف فى ڤيينا ، ينتظر الأنباء عن مجرى الأحداث فى مصر وهو مطمئن إلى أن رجاله العرب هنا ، يواصلون البحث عن الكنز المدفون . وفى رسالة منه إلى كراباتشيك مرسلة من ڤيينا بتاريخ ١٨٨٢/٩/٢٠ يقول :

« الصديق العزيز . . . يبدو أن الأمور فى مصر تسمح لى لحسن الحظ باستئناف نشاطى هناك عن قريب . بعد غد يصل السيد ترنتى Trenti من تريستا إلى الإسكندرية والقاهرة . وأنا واثق تماماً ، من أن رجالى العرب قد جمعوا فى الشهور الأخيرة كثيراً من التحف والبردى والمنسوجات الأثرية ، ولهذا فإننى أنتظر أن أتلقى تقريباً طروداً كبيرة من القاهرة . . . وإلى اللقاء » .

* * *

وتكشف الرسائل عن الثمن البخس الذى دفعته ڤيينا — الأرشيدوق راينر — فى هذه الصفقة التى لا يعرف العصر لها مثيلاً ، كما تكشف عن الظروف التى تمت فيها والمساومات التى جرت بشأنها ، والمكاتبات التى تبودلت حولها ما بين القاهرة وڤيينا وبرلين .

لقد كان جراف يطلب فى مجموعة بردى الفيوم الأولى — وتبلغ عشرة آلاف بردية بست لغات ، ومعها مجموعة من الأقمشة الأثرية — ثمانين ألف جولدن فقط . والجولدن عملة هولندية تساوى الآن حوالى اثنى عشر قرشاً مصرياً. ولا أعرف كم كانت تساوى فى زمن الصفقة . على أى حال فهى تساوى الآن شلنين انجليزيين ، فيما أخبرنى مدير البنك الأهلى فى ڤيينا ، أى أن الصفقة بيعت بخمسة آلاف جنيه إنجليزى تقريباً ، بالسعر الحاضر .

والرقم لا يعطى هنا دلالته كاملة ، إلا إذا رجعنا إلى سجلات وزارة المعارف المصرية حوالى ١٩٥٠ ، لعلها تكون قد احتفظت بالمكاتبات التى دارت بين الوزير

وبين سيدة أجنبية من هواة الآثار ، حول كتاب واحد من البردى المصرى كان فى حوزتها وعرضته على وزارة المعارف وطلبت ثمناً له آلافاً من الجنيهات. وقد سمعت بقصة هذا الكتاب من الأستاذ الوزير «على أيوب» رحمه الله، ثم أخبرنى الأستاذ الدكتور طه حسين بعد ذلك أن الثمن الذى طلبته السيدة الأجنبية لكتاب البردى كان خمسين ألفاً من الجنيهات :

ونعلم كذلك من الرسائل المنشورة فى كتاب « الدكتور هونجر » أنه حتى عام ١٨٨٣ لم يكن « الأرشيدوق راينر » ظهر على المسرح ولا عُرف له أىُّ دور فى القصة التى بدأت أحداثها تدور ما بين الفيوم والصعيد والقاهرة وڤيينا ، من عام ١٨٨١ ، وإنما كان الدور كله للمستشرق « يوسف كاراباتشيك » وتاجر السجاجيد الشرقية « تيودور جراف » الذى جازف فدفع ما دفع من ثمن البضاعة وطال عليه المدى فى انتظار استرداد هذا المال المعطل .

وكان الأمر — كما أشرت من قبل — يتم فى الخفاء، طبقاً لتعليمات كاراباتشيك . لكن "صفقة جراف" كانت من الضخامة بحيث لا يسهل أن تظل لمدى طويل طى الكتمان فلا تذهب الظنون كل مذهب فى الهيئة التى تتوارى خلف التاجر النمساوى . وشاعت شائعة فى الأفق الدولى تقول إن « جراف » لا يهتم بجمع البردى لحسابه الخاص وإنما يعمل لحساب متحف ڤيينا .

والرسالة التالية — وقد بعث بها جراف إلى كاراباتشيك فى ١٤/ ٨ / ١٨٨٣ — تسجل صدى ما شاع من أمر الصفقة فى أكبر العواصم الأوربية حينذاك :

« **الصديق العزيز . . .**

«منذ فترة قصيرة تلقيت من أخى "الدكتور برنارد جراف" هذا المقال المنشور فى صحيفة برلين اليومية بتاريخ ٣١ من مايو ، عن مجموعة البردى الكبيرة التى ظفرتُ بها . وحين قرأت فيه أننى جمعت هذا الكنز لحساب المتحف النمساوى وجدت من مصلحتى أن أكتب إلى الصحيفة ، مطالباً بتصحيح هذا الخطأ ومؤكداً أننى جمعت هذا البردى لنفسى لا للمتحف النمساوى . واليوم صباحاً تلقيت من برلين خطاباً من السيد "جورج بورش Georg Bursch" هذا نصه :

« برلين فى ١٢/٦/١٨٨٣ :

السيد المحترم ، تلقيت من إدارة صحيفة برلين اليومية التى أتشرف بالعمل فيها ، خطابك الكريم المؤرخ فى الثالث من هذا الشهر ، وكم كانت دهشتى ودهشة زملائى كبيرة ، حين علمنا منه أنه لم يتم أى إجراء فى ڤيينا لشراء المجموعة الهامة التى جمعتها من البردى ، لحساب الدولة ! وأرجو أن تأذن لى فى أن أتقدم إليك بنصيحة ، وهى أن تتجه إلى الإدارة العامة للمتاحف فى برلين ، وتعرض عليها شراء البردى ، وأنا واثق تماماً أن عرضك سوف يقبل على الفور ، وسأكون مديناً لك بالشكر إذا أبلغتنى قرارك فى هذا الأمر » .

« وواضح من هذا العرض ياصديقى أنهم فى برلين مهتمون بمجموعتى من البردى بحماس شديد . على أننى لن أعرض هذه البردى للبيع خارج النمسا إلا إذا طال الوقت ولم يتم شىء هنا . وعندئذ أرسله إلى برلين وأطلب ثمانين ألف جولدن ثمناً له . وهو ثمن ليس كبيراً بحال ما ، إذا قدرنا ضخامة المجموعة وما فيها من قطع قيمة . ولك تحيات قلبية من صديقك ، جراف » .

ولم تمض سوى أيام معدودات ، حتى أتبع جراف خطابه هذا بالخطاب التالى المؤرخ فى ٢٦ / ٦ / ١٨٨٣ :

« صديقى العزيز . . .

السيد "فون أيتلبرجر Eitelberger" — مستشار البلاط بالنمسا ، أرسل اليوم إلىّ ، يرجو أن أتوجه لمقابلته فى المتحف هذا الصباح ، وقد أخبرنى أن سمو الأرشيدوق راينر ، قد كتب إليه لكى يتولى عنه المفاوضة فى شراء مجموعتى من البردى والنسيج ، وعلمت أن السيد فون أيتلبرجر والأستاذ فون هارتل Von Hartel كتبا إليك فى هذا الموضوع .

وسئلتُ أن أقابل "الأستاذ ليسللى" بعد ظهر اليوم وأبلغه قرارى النهائى عن الموقف والثمن الذى أطلبه على وجه التحديد ، وقد أبديت للسيد المستشار الامبراطورى استعدادى لقبول ثلاثين ألف جولدن لمجموعة البردى . وعشرين ألف جولدن لمجموعة الأقمشة ، أى خمسين ألفاً للمجموعتين . . . »

على هذا النحو تمت الصفقة الكبرى ، ودفع « الأرشيدوق راينر » ثمنها .

ومن ذلك الحين بدأ حرصه على تنميتها ورعايتها ومتابعة دراسة العلماء لنصوصها ، فنقرأ فى خطاب له أرسله من قصره الصيفى إلى كارلباتشيك فى ١٨٨٤/٦/١٦ :

« الأستاذ العزيز :

الأيام القليلة التى أمضيتها فى ڤيينا لم تتح لى فرصة زيارتك فى مكان عملك . وأكتب الآن لأعبر لك عن جميل شكرى على النشرات الأخيرة والصور التى تفضلت فأرسلتها إلىّ . . . ويسعدنى حقًّا ، العثور على برديات جديدة باللغة الإغريقية أو الرومانية أو العربية ، مما يقدم دليلاً جديداً على اهتمامنا بهذا العمل الجليل . وأتمنى أن يتم بنجاح فك أوراق كتاب البردى الذى حدثتنى عنه كى تتاح لى قراءته كله ، وما أشك فى أنه سوف يعطينا مادة تاريخية هامة .

وإذ أكرر لك شكرى ، أتمنى لعملك الجليل أحسن النتائج .

وسأبقى المخلص ، راينر » .

* * *

وأتابع قراءة الرسائل فأجد بينها رسالة من « جراف » فى القاهرة بتاريخ ١٩ / ١ / ١٨٨٥ تنبئ بأن الفيضان الكبير للبردى فى مصر قد انحسر ، وترك لدى التجار بقايا ، يود جراف أن يعود بها إلى وطنه . لكنهم يغالون فى ثمنها فيطلبون ثلاثين فرنكاً لثلاث أو أربع أوانٍ مليئة بلفائف البردى ! ويستطرد جراف قائلاً : « وقد رفضتُ لوحات أثرية من الخزف عليها كتابات إغريقية وقبطية وديمطيقية وهيروغليفية ، عُرضت فى السوق بسعر سبعين فرنكاً ، وهى الآن فى طريقها إلى متحف اللوفر بباريس . والواقع أن الضيق المالى الذى تعانيه حكومتنا قد أصبح معروفاً هنا . ونفوذنا يتقهقر بسرعة إلى الوراء . . . وقد سمعت هنا قصصاً مثيرة ، ومع ذلك يقولون ؛ الشرق لنا ! » .

كما أجد بعدها رسالة كتبها « جراف » وهو فى ڤيينا إلى صديقه المستشرق بتاريخ ١٥ / ١٢/٨٥ . يقول فيها :

« الصديق العزيز :

« علمت مما كتبه نائبي بالقاهرة فى رسالة إلىّ ، أن الاهتمام بالبردى نشط من جديد ، وقد انتشرت هناك شائعة تقول إنه تكونت فى برلين جمعية برياسة "هاينريش شليمان Heinrich Schliemann" رصدت نصف مليون مارك لاجتلاب البردى من مصر » .

* * *

وتتتابع الرسائل ، لنعلم منها أن الحكومة المصرية ظلت فى غفلة عن الأمر إلى أن ذاعت أخبار سوق البردى وانتشرت قصص مثيرة عن المساومات التى كانت تجرى فيها والهدايا التى كانت تُحمل منها إلى الأباطرة والملوك ، فبدا للحكومة أن تفرض رقابة على السوق لكى تحتكر البضاعة وتستأثر بالثمن المجلوب .

ويبدو أن إعلان عزم الحكومة المصرية على التدخل فى الموقف ، قد أزعج الذين حسبوا أن الرقابة الحكومية جد لا هزل فيه ، فتوقف نشاطهم فترة خوفاً من العقاب الصارم ، كما يظهر ذلك بوضوح فى رسالة بعث بها جراف إلى كارلباتشيك فى منتصف ديسمبر عام ١٨٨٥ وقال فيها :

« . . . وكتب لى نائبى فى القاهرة ، أنه قد بلغه أن الأستاذ "أدولف أرمان" من علماء المصريات المشهورين — يبحث الآن فى كل مكان عن البردى ويسأل عنه كل من يلقى ، لكن دون أن ينجح إلى الآن فى الوصول إلى شىء منه . وليس هذا بمستغرب . فالبردى أولاً : لا يعوم بالقاهرة فى الهواء ! وثانياً : معروف أن جواسيس الحكومة المصرية منتشرون فى كل مكان يحاولون أن يعرفوا أين عُثر أو يعثر على البردى ، والذى عُثر عليه . ولهذا فإن مصادر البردى لابد أن تتوقف وتصمت لفترة طويلة . وأعتقد أنه بمجرد نشرك ما أعددتَ من مجموعتنا من البردى — وفيها وثائق بالغة الأهمية عن غزو المسلمين لمصر — سيكون من الخطر المجازفة بالسؤال عن البردى فى مصر ، فما بالك بمحاولة تصديرها إلى الخارج ؟

« وعلى أى الأحوال ، لنا أن نعد أنفسنا سعداء لأننا استطعنا لحسن الحظ أن ننقل إلى ڤيينا فى الوقت المناسب هذه الكمية الضخمة من وثائق البردى الموجودة لدى سمو الأرشيدوق راينر .

« وتتجمع الآن فى مصر سُحُبُ العاصفة آتيةً هذه المرة من السودان . متى نتمتع بالهدوء فى هذا البلد كى تسير الأمور التجارية على الأقل سيراً حسناً ؟ » .

* * *

لكن فترة التوقف فى سوق البردى ، لم تطل إلا ريثما كشفت الأيام عن عقم الرقابة الحكومية وغفلة الحراس الإداريين الذين نام منهم من نام التماساً للراحة وإيثاراً للعافية ، وآخرون منهم أغمضوا عيونهم وقد أعشاها بريق المال ، فصدق فيهم المثل : حاميها حراميها .

ودب النشاط من جديد فى السوق بعد أن أدرك المتعاملون فيها عبث الرقابة الحكومية ، واطمأنوا إلى أنهم يستطيعون استئناف نشاطهم فى البحث عن الكنز فى غفلة من الخفراء والحراس أو بالتواطؤ معهم ! وعادت لفائف البردى تتدفق من مصر إلى أوربا ، وحقق التاجر المحنك « تيودور جراف » جولات جديدة ظافرة فى الميدان ، فنقرأ فى رسالة منه إلى الدكتور كاراباتشك بتاريخ ١١/٢/١٨٨٧ خبراً عن مجموعة جديدة من البردى حملها بنفسه من مصر إلى فيينا ، وطلب من صديقه المستشرق عرضها على الأرشيدوق راينر ، ثم إفادته عن رأى سموه فيهما ، وختم خطابه قائلاً :

« . . . ولن يسعدنى فى هذه الظروف التجارية السيئة أن تتم الصفقة فقط ، بل إنى أرحب كل الترحيب بإتمامها فى أقرب فرصة . ذلك لأنى أود أن أسافر خلال هذا الشهر إلى القاهرة ، وأرى من الضرورى تأجيل سفرى إلى أن ينجلى الموقف بالنسبة إلى هذه المجموعة الجديدة من البردى والرق . والواقع أنه لو خامرنى أدنى ريب فى تردد سمو الأرشيدوق راينر فى شرائها ، لكنت اضطررت إلى عرضها للبيع فى مكان آخر ، لأنى دفعت فيها من رأسمالى ، ما لا أستطيع الاستغناء عنه طويلاً فى مثل هذه الظروف . . . » .

وقد تم بالفعل شراء البضاعة الجديدة لحساب الأرشيدوق راينر الذى ضمها إلى مجموعته ، وكتب إلى كاراباتشيك بتاريخ ١٣ / ٤ / ١٨٨٧ ما ترجمته :

الأستاذ العزيز :

« . . . ويسعدنى كذلك أن أسمع عما فى هذه المجموعة الجديدة وأن أعلم أن

العمل فيها يتقدم بنجاح بفضل جهدك وجهود السادة زملائك المشتغلين بها . وأنا مقدر بطبيعة الحال أن العبء تضاعف بالزيادة المطردة فى مجموعتنا التى ترجع الوثائق الأخيرة منها إلى عام ٨١٨ م ، ولا شك أن ترقيم هذه المجموعة وتصنيفها ، يحتاج وحده إلى جهد شاق . . . وأحييك إلى اللقاء .

راينر » .

ونستطيع أن نتصور مدى عقم الرقابة وغفلة الحراس ، إذا علمنا أن « جراف » لم يتردد فى القيام برحلة معلنة إلى مناطق الكشف عن البردى فى الصعيد . دون خوف أو حذر ، بعد عامين اثنين من فرض الرقابة التى حسبها فى أول الأمر ، تجعل مجرد السؤال فى مصر عن البردى مجازفة خطرة ! وهو يبدو فى عام ١٨٨٧ أقوى تفاؤلاً وأرحب أملاً فى العثور على بقايا ما سماه « الكنز الراقد تحت أرض مصر » ومن الفيوم ، بعث إلى كارلباتشك بهذه الرسالة المؤرخة فى ١٨٨٧/١١/١٩ :

الصديق العزيز :

« اليوم أبعث إليك تحية قلبية من الفيوم ، مكان العثور على بردينا Unsere Papyri فلقد قمت أمس بزيارة مناطق الكشف عنها فى كوم فارس ، تل من أطلال "أرسنوحى" العاصمة القديمة للفيوم وتبعد عنها بحوالى ربع ساعة . ولست أشك فى أنه إذا أتيح لنا البحث الجاد فى الأكوام والأطلال الخربة ، فسوف نعثر على بقايا ممتازة من آثار العصور القديمة . فهنا يرقد الكنز تحت الأرض ، ولا يحتاج إلا إلى المال فقط لنستخرجه ! والبردى فى السوق قليل ، لكن الحظ حالفنى فاستطعت الظفر بكمية منه كادت تفلت من أيدينا ، إذ من المنتظر أن يأتى الأستاذ "أولريش فيلكن Ulrich Wilken" قريباً لزيارة هذه المنطقة ، فلولا سبقى إلى هذه الصفقة الجديدة من البرديات ، لكانت فيما أعتقد ستأخذ طريقها إلى برلين » .

ثم تلتها بعد يومين رسالة منه إلى" كارلباتشك" جاء فيها :

« . . . من الفيوم أرسلت إليك أمس الأول تحية ألحقها اليوم ببضعة أسطر : ذكر لى رجال العرب ، أنه قد عُثر فى خرائب منزل قديم بإخميم على نحو مائتى لفافة مقفولة من البردى ، وتدل الكتابة المقروءة بوضوح على الأجزاء الظاهرة منها ،

على أنها ترجع إلى عصور قديمة . وأبادر فأرسل إليك اليوم ، فى طرد بالبريد المسجل ، أربع لفائف منها لكى تفحصها وتحكم عليها . وهى تبدو صعبة الفتح ولا يدرى أحد شيئاً عن النصوص المدونة فيها ، لكن من السهل عليك فتحها وقراءة نصوصها . فإذا بدت لك ذات قيمة فإنى أستطيع أن أوافيك بالكثير منها ، من نفس الحجم والصنف تقريباً . والعرب هنا تحت أمرى إلى أن أتلقى برقية منك . . » .

واستمر نشاط جراف وأمثاله رغم الرقابة المفروضة ، والحكومة عاجزة عن الاهتداء إلى سر الكنز . وكان يحدث أحياناً أن يسمع موظفوها المكلفون بالرقابة عن نبأ العثور على بردى فى جهة ما ، ثم ما يكادون يصلون إلى هذا المكان حتى يكون البردى قد أفلت منهم كما حدث فى مجموعة بردى « كوم اشقاو » التى عثر عليها الفلاحون عام ١٩٠١ ، ثم لما وصل جنود شرطة طما إلى القرية اختفت كلها فلم تعثر الشرطة على شىء منها . وبعد مضى أسابيع ظهر لدى تاجر بالقاهرة لفائف إغريقية جيدة من البردى المختفية ، كما اشترى الأستاذ موريتس لفائف عربية منها . وبعد زمن ، أُعلِن عن وصول كميات من "بردى كوم إشقاو" إلى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلاً عن اللفائف الرائعة التى اشتراها الأستاذ « ن . ايبشر ، وتاشند » من تجار القاهرة .

* * *

وأظننى بهذا القدر الذى رويته من قصة البردى قد بينت مدى اهتمام الدول الغربية بهذه الذخائر من تراثنا ، لما تضىء من التاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام ، ومن حيث هى تراث مشترك لا يصح أن تتخلى دولة متحضرة عن مسئوليتها فى الكشف به عن معالم التطور البشرى ما بين ماض وحاضر ، فضلاً عما يكشف لهم هذا التراث من سر وجودنا وطبيعة مزاجنا وملامح عقليتنا .

ومن قبلهم سعت رسل الغرب إلى أقطار الشرق باحثين عن كنوز مخطوطاته ، وجاء نابليون معه بجنود من العلماء لدراسة أحوال الشعب المصرى والكشف عن

أسرار تاريخه القديم ، فكيف بنا والتراث لنا والتاريخ تاريخنا ؟ ألسنا فى حاجة إلى أن نكشف عن حقيقة ذاتنا ونهتدى إلى معالم وجودنا منذ شهدنا التاريخ نقود البشرية على درب الحضارة والتمدن ؟

إن حاضرنا لا يمكن أن يستغنى عن تجارب ماضينا ، وعن الفحص الدقيق لأرضه التى يقوم عليها البناء الجديد .

* * *

(٤)

فحص المجموعة

استطعت بفضل المعونة الصادقة التى قدمتها « الدكتورة لوبنشتاين Loebenstein » مديرة المجموعة ، والأستاذ « فاكلمان Fackelmann » خبير البردى فى ألبرتينا ، أن آخذ فكرة كافية عن ذخائر "مجموعة راينر" .

وتقدر المجموعة بنحو مائة ألف بردية تم فكّ أكثرها ، ولا يزال هناك نحو عشرة آلاف لفافة لم تفك بعد . ويتابع الأستاذ فاكلمان فكها بتطريتها وإلصاقها على الورق المقوى . وقد قام كاراباتشيك ومعاونوه بفحص مقدار من هذه الذخائر نشر منها فى دليل كاراباتشيك ١٤٠٠ نص مع شروح وتراجم وتعليقات ، وما نشره جروهمان ، موجود فى كتبه عن البردى . وبقى نحو خمسين ألف بردية تم فتحها وصيانتها ، لكن دون أن تُفحص أو تقرأ .

ويقف عمل الخبير « فاكلمان Fachelmann » الآن فيما يختص بالبردى العربى عند تطرية اللفائف وصيانتها دون متابعة الفحص والتنسيق ، لجهله باللغة العربية ، وقد قال لى فيما قال : « ا ، فحص نصوص البردى العربية فى مجموعة ألبرتينا وقف عند كاراباتشيك وجروهمان من بعده ، بحيث يمكن القول إن دراسة البردى العربية قد ماتت — أو بعبارته ؛ Ist schon tot — على حين استمرت دراسة البردى اليونانية واللاتينية حية ، لوجود علماء متخصصين يواصلون فحصها واستقراء نصوصها . »

وما تم فكه وفهرسته ، وُضع منسقاً فى خزائن ذات أرفف من الصلب ، أعدت خصيصاً لهذه الغاية . وهى مصونة فى غرف موصدة منيعة لا يباح الدخول فيها إلا بإذن خاص ، وفى صحبة مديرة المجموعة . وجدران الغرفة عازلة للصوت مكيفة الهواء والرطوبة ، مجهزة بما يقيها من الحشرات والنار والتقلبات الجوية . وعلى كل رفٍّ بطاقة تحمل الرمز اللغوى لمجموعته ، وأرقامها فى الفهرس العام :

– رمز الرق العربى .A.P.G ، ورمز البردى العربى .A.B، والورق العربى .A.C–

ولم يتح لى بطبيعة الحال أن أشتغل بغير النصوص العربية وإن كنت بدافع الاطلاع قد ألقيت نظرة سريعة على نماذج من البردى فى اللغات الهيروغليفية والقبطية واللاتينية حيث لفتنى دقة خطها وروعة نسقها .

والجزء الذى اشتغلت عليه من البردى العربى ، يبلغ تسعمائة وخمسين بردية ، أرقامها فى فهرست المجموعة من ٥٥٠ إلى ١٤٠٠ وكلها عن مصر . وأقدمها مؤرخة عام ٢٢ هجرية من عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وأحدثها مؤرخة عام ٧٨٠ هـ . من عهد السلطان المنصور محمد ، فى عصر المماليك . وهذا بيان لها :

عصر الخلفاء الراشدين :

الخليفة عمر بن الخطاب من رقم ٥٥٠ : ٥٦٢
الخليفة عثمان بن عفان ٥٦٣ : ٥٦٧

مصر فى العصر الأموى :

من عهد معاوية ويزيد ٥٦٨ : ٥٨١
« عبد الملك بن مروان ٥٨٢ : ٥٩١
من عهد الوليد بن عبد الملك ٥٩٢ : ٥٩٥
« عمر بن عبد العزيز ٥٩٦
« هشام بن عبد الملك ٥٩٧ : ٦٠٧
« مروان بن محمد ٦٠٨

مصر فى العصر العباسى الأول : (١٣٢ : ٢٥٥ هـ)

من عهد أبى العباس السفاح ٦٠٩
« أبى جعفر المنصور (١ / ٩٠ مراسيم)
« محمد المهدى ٦١٠ : ٦١٦
« هارون الرشيد ٦١٧ : ٦٦٥
« محمد الأمين ٦٦٦ : ٦٨٢

من عهد المأمون ٦٨٣ : ٧٢٣
« المعتصم بالله ٧٢٤ : ٧٤٩
« الواثق بالله ٧٥٠ : ٧٥٥
« المتوكل على الله ٧٥٦ : ٧٧٥
« المنتصر بالله ٧٧٦
« المستعين بالله ٧٧٧ : ٧٨٥
« المعتز بالله ٧٨٦ : ٧٩٣

مصر فى الدولة الطولونية : (٢٥٤ : ٢٩٢ هـ)

من عهد أحمد بن طولون ٧٩٤ : ٨٣٤
« خمارويه ٨٣٥ : ٨٥٣
« جيش بن خمارويه ٨٥٤ : ٨٥٧
« هارون بن خمارويه ٨٥٨ : ٨٨٣

الدولة العباسية الثانية : (٢٩٥ : ٣٣٣ هـ)

من عهد الخليفة المكتفى بالله ٨٨٤ : ٨٨٥
« الخليفة المقتدر بالله ٨٨٦ : ٩٠٧
« الخليفة الراضى بالله ٩١٤ : ٩١٥
« المتقى بالله ٩١٦

مصر فى العصر الإخشيدى : (٣٣٣ : ٣٥٧ هـ)

من عهد محمد بن طغج الإخشيد ٩٤٩ : ٩٦٨
« أنوجور بن محمد ٩٧١ : ١٠١٦
« على بن طغج ١٠١٧ : ١٠٥٨
« كافور الإخشيدى ١٠٥٩ : ١٠٦١

مصر فى العصر الفاطمى : (٣٥٨ : ٥٦٧ هـ)

من عهد المعز لدين الله ١٠٦٤ : ١٠٧٣

من عهد العزيز بالله ١٠٧٤ : ١٠٨٩
« الحاكم بأمر الله ١٠٩٠ : ١١٤٦
« الظاهر لإعزاز دين الله ١١٤٧ : ١١٨٢
« المستنصر بالله ١١٨٣ : ١٢٨٥
« الآمر بأحكام الله ١٢٧١ : ١٢٨٢
« الظافر بأمر الله ١٢٧٣ : ١٢٨٦
« العاضد بالله ١٢٨٧

مصر فى العصر الأيوبى : (٥٦٧ : ٦٥٢ هـ)

من عهد صلاح الدين ١٢٩٠
« العزيز عثمان ١٢٩١
من عهد العادل سيف الدين ١٢٩٢ : ١٢٩٧
« الكامل محمد ١٢٩٨ : ١٣٠٢
« الصالح نجم الدين أيوب ١٣٠٣ : ١٣١٠
« الأشرف موسى ١٣١١ : ١٣١٥

دولة المماليك : (٦٥٧ : ٧٨٣ هـ)

من عهد السلطان سيف الدين قطز ١٣١٦ : ١٣١٧
« ركن الدين بيبرس ١٣١٨ : ١٣٢٥
« قلاوون ١٣٢٦ : ١٣٣٩
« ناصر الدين محمد
(فى ولايته الأولى) ١٣٤٠ : ١٣٤١
(فى ولايته الثانية) ١٣٤٢ : ١٣٤٨
(فى ولايته الثالثة) ١٣٤٩ : ١٣٦٤
« المنصور أبى بكر ١٣٦٥
« الملك الصالح إسماعيل ١٣٦٦ : ١٣٧١
« الكامل شعبان ١٣٧٢

من عهد الناصر حسن	١٣٧٣	١٣٨٣
« المنصور محمد	١٣٨٤	١٣٩٠
« الأشرف شعبان	١٣٩١	١٣٩٩
« المنصور على	١٤٠٠	

وقد شغلتُ بمراجعة نصوص هذه الوثائق على ما نشره كاراباتشيك عنها ، كما شغلت بقراءة ما كتبه من تعليقات على أكثرها . وقدرت المشقة البالغة التى تحملها وهو يقرأ هذه الوثائق بخطها القديم ، فى أوراق قديمة لم تسلم من عبث البلى . مما أجهدنى والعربية لغتى ونصوص التراث تخصصى . على أنى لاحظت أنه فى التعليق عليها قد جاوز فى أغلب الأحيان . ما تعطيه نصوص البرديات من دلالات . مضيفاً إليها من مطالعاته وآرائه ما لا يحتمل النص .

القيمة التاريخية لهذه النصوص

لم يعد مجهولاً أن أجيالاً متعاقبة من أبناء مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقته . وتراث البردى فى جملته ، يعطى وثائق مادية لهذا التاريخ الذى نحتاج إلى استجلاء حقيقته فى مرحلة اكتشاف الذات .

وفيه مفاتيح لكثير مما غاب من ذلك التاريخ ، وإضاءة لدور الشعب فى صنع حياته . وهو الدور الذى أغفله أكثر مؤرخينا ، ممن داروا فى فلك السياسة وشدت عيونهم إليها يرصدون حركات السلاطين والحكام ، ومَن حولهم من حاشية وجند ووزراء وشعراء وندماء . فجاء تاريخنا السياسى حلقات مسلسلة من أسماء أسر وحكام تتابعوا على العروش . وسرداً مفصلاً لأعمالهم ومعاركهم الحربية والمذهبية ؛ كما جاء تاريخنا الأدبى فى جملته ديواناً جامعاً لما نظم المرتزقة من شعر المدح وما قال المأجورون فى تمجيد أصحاب السلطان ، وتبرير أفاعيلهم أمام الجماهير .

ولقد عكف المستشرق « الدكتور يوسف كاراباتشيك » على دراسة بضعة آلاف من البرديات العربية فى " مجموعة راينر " من بداية الفتح العربى لمصر ، إلى عصر المماليك . وقدم فى أول كتاب نشره عن برديتنا وثائقَ تعطى مادة تاريخية لحياة هذا الشعب . القومية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية :

رسائل أفراد من عامة الشعب عن حاجاتهم وشكاواهم وأحوالهم . وتذاكر طبية من عصر مبكر تحدد أصنافاً من الدواء وطرق العلاج مثل البردية رقم ٧٤٣ من عهد المعتصم العباسى والبردية رقم ٨١١ من القرن الثالث الهجرى .

وطلبات سلع وبضائع من الأهالى والتجار ، حملها البريد من أشمون إلى الفيوم ومن دمياط إلى الصعيد ، فى طلب شراء أصناف من الأطعمة والملابس والحلى والعطور ، تتطلبها السوق أو يحتاج إليها بيت أو تُجهز بها عروس ، أذكر منها على سبيل المثال : البردية رقم ٥٦٣ فى شعبان سنة ٢٦ هـ من عهد الخليفة عثمان بن عفان ، والبردية رقم ٥٧٤ من عهد معاوية ، وفيها طلب لثلاثة معاطف ، وعدد من مناديل

الرأس والألحفة الصوفية مع تحديد ألوانها ، ومقدار من عصير البلح ؛ والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبد الملك ، وفيها بيان لميزانية بيت أحد الأغنياء ؛ والمقرر لنفقات اصطبل خيوله . والبردية رقم ٧١٠ بتاريخ ٢٠٨ هـ من عهد المأمون ، وفيها مبادلة أصناف من السلع بين التاجرين « فيب وقسطنطين » من قبط مصر .

والبُردية رقم ٧٧١ من عهد المتوكل . ببضائع تجارية من الملابس والأقمشة مع بيان أسعارها ، ورقم ٨٤١ من العصر الطولونى . وفيها بيان أصناف مطلوبة لحمام كحل قيمته ½ دينار ، وعطر بربع دينار ، وزعفران لصبغ الشعر بدرهم وثُمن درهم ، وحناء للشعر والأيدى بِثُمْنِ درهم ، وزيت طبى بدرهم .

والبردية رقم ١٠٧٢ من العصر الفاطمى ، وفيها توكيل بشراء كتب وورق وأطعمة وأقداح شراب وغطاء مائدة ؛ مع تحديد أسعار كل منها. والبردية رقم ١٢٩٠ مؤرخة فى عام ٤٨٧ هـ من العصر الفاطمى أيضاً ، بطلب شراء : منديل أحمر للرأس ، وقميص داخلى من قماش ناعم جداً أحمر اللون ، ومعطف من صنف ممتاز .

وحجج لوفاء النيل فى سنوات بعينها ، كالبردية رقم ٦١٨ من عصر الرشيد . وأوامر ديوانية بإحصاء لعدد السكان بمصر وأعمارهم وأماكن إقامتهم ، كالبردية رقم ٥٩٩ عن الإحصاء الذى تم فى عهد هشام بن عبد الملك واستغرق ستة أشهر .

وعقود زواج وإيجار ، وصكوك معاملات رسمية وأهلية ، أذكر منها مثلاً البردية رقم ٥٦٨ وفيها وثيقة صداق من عهد معاوية ، ورقم ٦٠٩ بصكوك ضرائب من أول العصر العباسى ، ورقم ٦١٣ من عهد المهدى ، وفيها نص وصية رجل قبل موته مع بيان بتوزيع تركته ، والبردية رقم ٦١٧ وتعد أقدم وثيقة عِتق عُرفت حتى اليوم ، وهى لعتق مملوك من الأتراك اسمه « نتجيش » كانت تملكه سيدة تدعى بنت يوسف . والبردية رقم ٦٤٦ من عهد الرشيد وفيها صكوك إيصالات من أرملة اسمها « سمية » للأوصياء على أولادها الثلاثة القُصَّر ، باستلام نفقاتهم السنوية من مال وطعام .

وشكاوى من أزمات القحط والغلاء ، منها ما يرجع إلى العصر الأموى (بردية رقم ٥٩٦) ومنشورات ثورية ضد جور الجُبَاة وعسف الولاة ، أذكر منها البردية

رقم ٧٨٨ من آخر العصر العباسى ، وفيها ثورة ضد الوالى التركى ، ورفض سيادته على أبناء مصر وعَدّ ولايته غيرَ شرعية لأنه تركى كافر .

وكل هذا مما يحتاج إليه تاريخنا تصحيحاً لخطأ أو إكمالاً لنقص أو كشفاً عن تزييف وتزوير . إلى جانب ما تقدمه هذه الآثار المادية إلى التاريخ الحضارى العام من معالم الحياة فى عصور بعينها وإلى المشتغلين منا بتوثيق مخطوطات تراثنا ، من إضاءة لتطور المواد المستعملة فى الكتابة وأنواع المداد ونسق الخط ، وأشكال الزخارف والرسوم ، وطرق اللف والطى والتجليد .

ويقول « الأستاذ كاراباتشيك » فى مقدمته لدليل البردى العربى ، بعد إشارة إلى ما كانت مصر تعانى تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد ، ما ترجمته :

« كلما اقترب بَردينا Unsere Papyri الإغريقى من العصر البيزنطى ، تغير المعروف لنا عن تاريخ مصر ، واتضح لنا إلى أى مدى كان هذا البلد العريق الذى جمع من أقدم العصور بين أخصب الأراضى وأزهى العمران والتفوق الحضارى والتجارى ، به شعب يتحمل المصاعب بصبر . كما ترينا صكوك البردى كيف شلّ الفقرُ الطبقةَ الشعبية ، وكيف خلق الضغط الضريبى أزمات عميقة .

« وهى تفسر لنا كيف وقع أكثر بلد على الأرض بركةً ، كالثمرة الناضجة بين أيدى الفاتحين العرب ، ويعد نجاح الفتح فى تلك الفترة القصيرة من أغرب الأحداث فى التاريخ العام . وقد جاءنا البردى العربى بمعلومات قيمة فريدة عن مصر ، ونقل إلينا صورة للحياة فيها بطريقة دقيقة ، نشعر معها كأننا نعيش فيها .

« ومن نصوص البردى لذلك العهد ، يظهر لنا أن فكرةَ غزو العرب لمصر ، كانت تحمل طابعاً آخر غير ما نعلم ، وأن الكتابة الحديثة لتاريخ تلك الفترة وقعت فى أخطاء جسيمة عديدة .

« كم يظهر لنا فاتحو مصر — بفحص هذه الوثائق — فى صورة جِدّ مغايرة للصورة المعروفة ! فهم لم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبى الجمال ، وإنما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص . وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحّبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية

العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى ، إحداها مؤرخة فى من ٨ يناير ٦٤٢ م . وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن العرب الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة . وفى كتابة "الأسقف يوحنا" — المعاصر لتاريخ الفتح — اعترافٌ بأن "عمرو بن العاص" لم ينزع شيئاً من أملاك الكنيسة » .

* * *

وقد أشرت إلى أن أقدَمَ الوثائق العربية مما فحص «كارلباتشك» من "مجموعة رايزر" يرجع إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وبتصوير البردية رقم (٥٥٨) قرأتُ عليها بوضوح أنها كتبت فى شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين هجرية. أما أحدث البرديات ، فمن عصر المماليك حيث تحمل البردية رقم ١٤٠٠ تاريخ سنة ٧٨٠ هـ من عهد السلطان الملك المنصور على .

وليس من المتصور أن نكون قد عرفنا تاريخنا وأحطنا بأسراره علماً دون مطالعة لما كشف الأجانب الغرباء من وثائق مادية لها مثل تلك الأهمية ، إلى جانب ما لم يفحصه أحد من عشرات الألوف غيرها ، فضلاً عن لفائف البردى التى لا تزال مطوية لم تُفكّ وعددها فى "مجموعة رايزر" وحدها نحو عشرة آلاف .

وفيما يختص بجدوى فحص هذه الوثائق على الدراسات الأدبية واللغوية ، كان من الضرورى أن أطلع على نماذج من الكتابة العربية فى العصر الإسلامى المبكر ، لأهتدى بها فى توثيق مخطوطات تراثنا ، من حيث نسق الخط ورسمه ومداده ، فضلاً عما تضم "مجموعة رايزر" من نصوص ذات أهمية فى معرفة نماذج من لغة الكتابة وأساليبها . وقد عُنيت بوجه خاص بما فى المجموعة من برديات فيها نصوص قرآنية ، مثل البردية رقم ٧٢٨ وفيها الآيات من ٦٧ إلى ٩٨ من سورة مريم . والبردية رقم ٧٢٩ وفيها آيات من سورة يونس ، ويبدو أنها كانت تُستعمل تميمة .

وعُنيت كذلك بالرسائل ذات الطابع الأدبى ، مثل البردية رقم ٦١٥ من القرن الثانى الهجرى — عهد الخليفة المهدى العباسى — وفيها مظلمة يتيم اغتصب أحد الأعاجم ديناً ضئيلا كان عليه لوالد الشاكى ، فهو يتضرع إلى الوالى أن يستدعى

المغتصب ويرغمه على الإقرار بالحق ، ثم يدعو الله أن يطيل عمر الوالى ويباركه . والبردية رقم ٦٣٩ من عهد الرشيد ؛ وهى من النثر الفنى العاطفى ، كتبها مريض أنهكه الحب نفسيًّا وجسديًّا .

والبردية رقم ٨٤٢ وفيها نصُّ كتابِ عتق « بإرادة الله عتقناك ، مما لايجعل لى أو لأى إنسان آخر أن يتعرض لحريتك بأى طريق » مع التاريخ وتوقيع الشهود . والوثيقة رقم ١٠٦٤ من العصر الفاطمى — عهد المعز لدين الله — وفيها منظومة لأحد الإمامية فى هجاء معارضيهم السياسيين والدينيين ، واتهام لهم بالانحراف عن الإسلام .

والواقع أننى كما أشرت فى مقدمة هذا التقرير . قصدت من رحلتى إلى التماس مثل هذه النصوص والوثائق التى قدرت جدواها على ما أشتغل به من توثيق المخطوطات وتحقيق النصوص . لكن قصة البردى المثيرة ، ما لبثت أن دفعتنى إلى متابعتها ومراجعة كل ما يتسع له الوقت من سجلاتها ورسائلها والكتب المؤلفة فيها . فاتضح لى آخر الأمر أن موضوع هذه الذخائر لا يقتصر على أهميتها للمشتغلين بتحقيق التراث العربى والدراسات اللغوية والأدبية فقط ، وإنما يتسع ويمتد ، فيتصل كذلك اتصالاً مباشراً بتاريخنا القومى ، وبالتاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام .

توصيات ومقترحات

هل لى بعد هذا كله ، أن أتقدم ببعض المقترحات والتوصيات ؟

١ — تتبنى جامعة عين شمس بالاشتراك مع دار الكتب قضية هذه الوثائق المجهولة لنا من تاريخنا ، وتُدخلها فى برنامج نشاطها العلمى ، بحيث تخطط لها فى مشروعاتها وترصد لها جزءاً من رصيد ميزانيتها للبحوث والمهمات العلمية .

وأرى أن هذه القضية تتصل فى التخطيط للمستقبل بموضوع إنشاء معهد عال للتراث وسوف أتقدم إلى الجامعة بمذكرة تفصيلية خاصة ، عن مشروع هذا المعهد الذى يحتاج إليه وجودنا ، قوميًّا وعلميًّا .

٢ — توصى الجامعة بأن يدخل فى اتفاقية التعاون الثقافى بين مصر والنمسا تصوير الوثائق التى تم فكها وفهرستها من مجموعة بردى ڤيينا ، وإيفاد لجنة من السيد مدير دار الكتب وأساتذة الجامعة المتخصصين فى التاريخ المصرى والإسلامى والتراث العربى ومعهم أمين مكتبة الجامعة ، لاستكمال فحص هذه الوثائق واختيار ما يجب تصويره منها . مع التوصية كذلك بترجمة ما فى "ألبرتينا" من دراسات بردية ، عن الألمانية .

٣ — تسعى الجامعة لدى إدارة العلاقات الثقافية الخارجية ، لتكليف ممثليها الثقافيين فى روسيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بكتابة تقرير عام عن كل مجموعات البردى المشار إليها فى هذا التقرير .

وأود هنا أن أسجل شكرى الخالص وتقديرى الصادق لما لقيت من رعاية «السيد حسن التهامى» سفير الجمهورية العربية المتحدة فى النمسا ، ومساعدة المكتب الثقافى العربى بڤيينا .

كما أذكر بجميل التقدير « الدكتورة لوبنشتاين Dr. Loebenstein » مديرة مجموعة بردى ڤيينا ، والسيد « أنطون فاكلمان Fackelmann, A. » خبير البردى فى ألبرتينا ، لما قدما لى من معاونة صادقة ، وما يسرا لى من فرصة العمل المثمر .

* * *

ولقد تقدمت بهذه التوصيات ، مع التقرير ، إلى الجامعة ودار الكتب بالقاهرة ، إثر عودتى من ڤيينا ، صيف عام ١٩٦٤ . ونشرت فى الأهرام فى الصيف نفسه ، فصولاً من قصة البردى ، ومشاهد من السباق على الكنز . فكانت الاستجابة من وزارة الثقافة التى بذلت لهذه القضية عناية جادة ، فى حدود طاقتها :

فلقد بادر المجلس الأعلى لدار الكتب ، إثر عرض هذا التقرير عليه ، فى عام ١٩٦٥ ، إلى إيفاد مبعوث من الدار إلى ڤيينا ، على منحة ثقافية ، خُصصت للبردى فى ألبرتينا .

ثم فى عام ١٩٦٧ صدر قرار من السيد الدكتور وزير الثقافة ، بإنشاء مركز للتراث فى دار الكتب بالقاهرة ، تأتى الإشارة إليه فى الحديث عن معهد التراث .

وحين استقر الرأى على عقد اتفاقية ثقافية بين مصر والنمسا ، وُزع مشروع الاتفاقية قبل إقرار صيغته النهائية ، على الهيئات الثقافية والجامعات ؛ فأتيح لى بذلك أن أقترح النص فى لائحة الاتفاقية ، على بذل جهد مشترك من مصر والنمسا ، لمجموعة بردى ألبرتينا .

وصدرت اللائحة فى مستهل عام ١٩٦٩ ، وفيها هذا النص المقترح .

* * *

وتفضل السيد وزير الثقافة « الدكتور ثروت عكاشة » فأوفدنى إلى « ڤيينا » على هذه الاتفاقية الثقافية ، حيث تابعت فى صيف هذا العام (١٩٦٩) ما جَدَّ على ألبرتينا بعد زيارتى السابقة لها سنة ١٩٦٤ :

فى سنة ١٩٦٦ ، أنجزت ألبرتينا العمل فى ١٣١ من لفائف البردى تمت تطريتها وفكها وصيانتها ، منها خمس باللغتين اليونانية واللاتينية ، ٢٤ بالعربية ، ٧ بالعبرية ، ١٢ بالقبطية ، والباقى من لفائف الرق والورق .

فى سنة ١٩٦٧ : تم العمل فى ١٢٠ بردية ، تطرية وفكًّا وصيانة ، منها ٤٣ باليونانية ، ٧ بالعربية ، ٧٠ بالقبطية . ومعها ٧١ لفافة من الورق العربى و ٤٠ لفافة من الرق القبطى .

فى سنة ١٩٦٨ : تم الفك والإعداد والصيانة ، لنحو ٥٥٠ لفافة ، منها ١٨٧ بردية قبطية يونانية ، وخمس لفائف من الرق ، و١٨ لفافة من الورق العربى .

* * *

ولم تكن مفاجأة لى أن أعلم أن سوق البردى ما تزال تعرض صفقات من كنزنا المصرى . وقد دخلت النمسا السوق مشترية ، فظفرت بصفقتين منها أضافتهما إلى مجموعة ألبرتينا . وحال ضيق الوقت المحدد لرحلتى ، دون متابعة قصة هذه الصفقات الجديدة ؛ وفحص الوثائق العربية منها ، حيث لاتزال لفائفها هناك لم يبدأ العمل بعد فى إعدادها .

ونحن ، ما نزال بمعزل عما يجرى فى سوق البردى : تراث أسلافنا ومادة تاريخنا !